السلطان محمد الفاتح
وبداية عهد جديد في الدولة العثمانية

للدكتور : سيد رضوان علي

السلطان محمد الفاتح

بريشة الرسام بلينى

السلطان محمد الفاتح

إن الدولة العثمانية استغرق بناؤها مدة قرن ، ثم أصيبت فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى بمحنة كبرى على يد الفاتح المغولى تيمورلنك وكادت أن تنهار أو تتمزق بسبب الحرب الأهلية الطويلة الأمد إثر ذلك ، ولكنها أنقذت وأعيد بناؤها على أيدى سلاطينها الأكفاء فى ظرف أربعين سنة . وهكذا استغرق تكونها وتوطيدها مدة قرن ونصف قرن من الزمن ، منذ نشأتها الأولى كإمارة عثمان بن أرطغرل الصغيرة إلى أن أصبحت دولة قوية الأركان ، شامخة البنيان فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، شأن كل الإمبراطوريات الكبرى الطويلة الأجل التى لا يستكمل بناؤها إلا بعد فترة مديدة من الزمن . وآن الأوان للدولة العثمانية بعد استقرار فتوحها فى آسية الصغرى والبلقان بأن تغدو قوة عالمية ، وتحل محل الإمبراطورية البيزنطية المتداعية التى لم يبق مبرر لبقائها بعد أن أحاط بها العثمانيون من جميع جهاتها ، ولم يبق فى أيدى أباطرتها إلا العاصمة العتيدة الآيلة الى الاضمحلال والخراب ، القسطنطينية . وتم ذلك فى عهد السلطان محمد الثانى الشاب الذى خلف أباه مراد الثانى ، واشتهر فى التاريخ بمحمد الفاتح . ومنذ عهده تحولت الدولة العثمانية من سلطنة الى إمبراطورية ، ومن قوة إسلامية إلى قوة عالمية ، وامتدت فترة عظمتها لمدة قرن من

الزمان ، وبلغت ذروتها من القوة والمجد والرقى فى عهد سليمان القانونى ابن حفيد محمد الفاتح ، فى القرن السادس عشر الميلادى .

حكم السلطان محمد الفاتح وشخصيته (١) :

تولى محمد الثانى بن مراد الثانى بن محمد الأول حكم الدولة العثمانية فى ١٤٥١ م وهو شاب لم يتجاوز عمره ٢٢ سنة ، وحكم لمدة ٣٠ سنة (١٤٥١ ــ ١٤٨١) واشتهر فى التاريخ بلقب محمد الفاتح ، لفتحه القسطنطينية ، وهو من بين الفاتحين القلائل فى التاريخ العالمى فى هذه السن المبكرة ، ومن نناة الحضارة الراقية والمجد الرفيع .

ورث السلطان محمد الفاتح دولة قوية واسعة ، ولكن لم ترض نفسه الطموح بأن يكتفى بأمجاد أسلافه ، ويعيش فى رفاهية ونعيم ، بل صمم على أن يزيد أمجاداً جديدة إلى أمجادهم بفتوحه فى أوربا وآسية الصغرى ويتوج تلك الأمجاد وأمجاد الإسلام عامة بتحقيق حلم راود المسلمين مدة ألف عام، وهو فتح القسطنطينية، عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، العدوة القديمة للإسلام والمسلمين منذ عهدهم الأول . وكان هذا الفتح أقسى ضربة سددها الإسلام فى وجه أوربا النصرانية فى تاريخها الطويل على يد هذا الفاتح . ومن ثم نرى معظم المؤرخين الغربيين ينالون من محمد الفاتح،

---

(١) أفاض المؤلفون الغربيون فى الكلام عن حياته وحكمه ، وألفوا فى سيرته ، ومن أقدم هذه المؤلفات كتاب المؤلف الفرنسى من القرن السابع عشر جوييه « Guillet » وأحدثها بقلم عالم التركيات الألمانى بابنجر « Babinger » بعنوان
« Mehemed der Eroberer und Sein Zeit, (Munich 1953) »
وفى اللغة العربية كتابان جيدان عنه :
« ابو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية » للقاضى الباحث التركى على همت الاقسكى و « محمد الفاتح » للدكتور سالم الرشيدى، ولقد أفدنا منهما كثيرا . وهناك كتاب صغير آخر عن حياته بقلم الدكتور محمد صفوت . وكتب عنه كبن « Gibbon » الفصل ٦٨ من تاريخه المذكور ، من وجهة النظر المسيحية والأوربية التقليدية ، معتمداً على مصادر بيزنطية معاصرة .

وينعتونه بأبشع الصفات من قسوة ووحشية وغدر . ولم يشذ عنه حتى المستشرق الإنجليزى المعتدل لين بول « Lane-Poole » وهو محض افتراء وبهتان ، لم يدفعهم اليه إلا الحنق والغيظ لمحوه اسم الدولة البيزنطية وريثة الإمبراطورية الرومانية ، من خريطة التاريخ إلى الأبد .

كان السلطان محمد الفاتح عبقرية فذة من عبقريات الإسلام ، فلم يكن مجرد فاتح مغوار وقائد عسكرى مظفر ، بل كان يجمع بين صفات القيادة العسكرية الموفقة وبين الثقافة العلمية الرفيعة ، يقود الجيوش ويفتح المدن والدول ، ويتذوق العلوم والآداب والفنون بمختلف أنواعها ، ويقدرها ويرعاها ، وينشىء ويعمر .

ولقد أشاد بذكره المؤرخون المسلمون المعاصرون وخاصة المصريون ، كابن تغرى بردى وابن اياس ، والسخاوى ، والسيوطى ، وابن العماد الحنبلى والشوكانى اليمنى فيما كتبوه من ترجمته فى مؤلفاتهم التاريخية العامة ، وأثنوا عليه ثناءا عاطرا ، ونوهوا بفتوحه وعلمه وعظمته فمن ذلك ما قاله المؤرخ المصرى ابن اياس عندما بلغه نبأ وفاته : « وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد الغازى ملك الروم وصاحب القسطنطينية ، وهو محمد بن مراد بن محمد ... وكان ملكا جليلا عظيما ساد على بنى عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ، وحاز الفضل والعلم والعدل ، والكرم الزائد ، وسعة المال ، وكثرة الجيوش ، والإستيلاء على الأقاليم الكفرية . وفتح الكثير من حصونها وقلاعها (٢) ... الخ .

---

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور أو تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٠٤ ــ ٥ ، ومثل ذلك ما كتبه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ج ٧ (طبعة كاليفورينا) ص ٣٥٧ و ٤٣٧ ، وكتابه الآخر حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٩٨ ــ ٩ ج ٣ ص ٤٤٨ ــ ٩ ، السخاوى فى ضوء اللامع ج ١٠ ص ٤٧ ، والشوكانى فى البدر الطالع ج ٢ ص ٢٦٩ وابن العماد الحنبلى ج ٧ ص ٣٤٤ ــ ٥ ، والآخرون غيرهم .

لا شك أن محمداً الفاتح كان من الشخصيات الموهوبة فى النواحى العلمية والسياسية على السواء ، ونشأ نشأة منذ الصغر ، فان والـده مراد على الفنون العسكرية والشئون السياسية منذ الصغر ، فان والده مـراد الثانى اهتم بتربيته ، وعين لتثقيفه وتربيته أعظم علماء الدولة فى العلـوم الدينية والأدبية والرياضية والفلكية ، كابن تمجيد ، والمولى شمس الدين الكورانى ، والمولى زيرك ، وخواجه زاده وسنان باشا وغيرهم (٣) . وتوفر هكذا محمد الفاتح على دراسة مختلف العلوم الدينية والأدبية ، وشغف بالعلم ومصاحبة العلماء والأدباء وتقديرهم ورعايتهم ، ولم يفارقه هذا الشغف طوال حياته ، وظهرت آثار ذلك فى إنشائه المعاهد العالية للعلم ، المعروفة بمدارس الصحن الثمان فى القسطنطينية بعد فتحها وتردده اليها دائمـا ، وتشجيعه للعلماء الأفذاذ والأدباء الموهوبين من جنسيات مختلفة ليس فى بلاده فقط بل خارجها أيضا . ومن ذلك ما ذكر أنه كان يبعث هدايا مالية الى العالم النحوى المصرى محى الدين الكافيجى أو الكافيه جى ، كمـا عين مرتبات سنوية لكل من الشاعر الصوفى الفارسى الشهير عبد الرحمن جامى فى ايران ، وكذلك الشاعر المسلم الهندى خواجه جهان فى الهند .

وكان مولعا بقراءة كتب التاريخ وسير كبار فاتحى العالم وحكامه ، وسـماعها كالإسكندر الكبير ، والقياصرة أغسطس الرومانى والقسطنطين الكبير ، والإمبراطور البيزنطى ثيودوسيوس كما ذكره المؤرخ البيزنطى المعاصر جورج فرانزا (٤) . ومكنته بذلك ثقافته اللغوية الواسعة ، اذ كان يجيد حسب كلام المؤلف نفسه اللغة اليونانية واللاتينية والسلافية بالإضافة الى اللغات العربية والفارسية والتركية . وهو الذى أمر بترجمة جغرافية بطليموس من نسخة أصلية وجدها فى مكتبة الإمبراطور البيزنطى الأخير

(٣) وانظر أسماء الأساتذة الآخرين فى على همت الأقسكى ، المصدر المذكور ص ٣٠ ، هامش ٣ ، وتراجمهم فى مواضع مختلفة من هذا الـكتاب ، وفى كتاب الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية لطاشكبرى زاده .

(٤) « Gibbon, op. cit. vi, 418 »

الى اللغة العربية ، كما أمر بترجمة كتاب بلوتارخ « Plutarch » الشهير عن حياة مشاهير الرومان الى اللغة التركية لإفادة شعبه حسب كلام كبن « Gibbon » (٥) .

أما الشعر فكان ميالا اليه بموهبته الفطرية وطبيعته الفنية وكان يقرض الشعر باللغة التركية والفارسية ، وله ديوان مطبوع . وبلغ غرامه به انه كان فى بلاطه نحو ثلاثين شاعرا لهم مرتبات شهرية . ولولوعه هذا بعث اليه أحد الادباء اللاتين فليليف « Philelphe » قصيدة مدح من ميلانو ، يتوسل بها إلى الفاتح لإطلاق سراح عائلته بعد فتح القسطنطينية فتأثر بها ، وأجاب طلبه (٦) .

ودعوته للرسام الإيطالى الشهير جنتلى بلينى Gentile Bellini والمثال البندقى بارتولوميو « Bartholomio » ، وبناؤه جامعه الشهير ، واعجابه بمعهد اكروبول فى أثينا بعد فتحها ، كل ذلك دليل ساطع على طبيعته الفنية ، وتذوقه لروائع الفن ، وتشجيع أصحابها ، دون تعصب ممقوت .

ولقد اهتم الفاتح بتنظيم إدارة دولته مدنيا وقانونيا ، ومن ثم عرف بلقب محمد القانونى (٧) أيضا لوضعه قانون الدولة الأول ، المتصل بوظائف رجال الدولة والقصر والجيش ، والذى ظل معمولا بم الى عهد سليمان القانونى فى القرن السادس عشر ، الذى أجرى بعض التعديلات عليه .. وهكذا فلم يكن محمد الفاتح مجرد فاتح عظيم ، بل منشىء حضارة تركية عثمانية إسلامية .

---

(٥) « Ibid., P. 417 » وذكر فرانزا اللغة الكلدانية بدل السلافية ، ولكن الذى اخترناه هو ما ذهب اليه محقق تاريخ كبن O. S. وهو الأصوب ، وذلك لاحتكاك العثمانيين منذ القرن الرابع عشر الميلادى بالأمم السلافية .

(٦) « Gibbon, vol. vi, p. 418 »

(٧) الرشيدى ، المصدر المذكور ، ص ٤٠٥

وكان من أهم صفات الفاتح الشخصية العزيمة التى لا تلين أمام العقبات والصعاب ، والجرأة والإقدام اللذان لا يعترفان بالمستحيل ، والطموح الذى لا حد له ، والذى كان يدفعه إلى إنشاء إمبراطورية عالمية تضم الشرق والغرب على غرار إمبراطورية إسكندر الكبير ، وحالت دون تحقيقها موته المبكر ومنها رحابة صدره وسماحته لأصحاب العقائد الأخرى، والتى بلغت فى عصر التعصب الدينى المسيحى الممقوت الى حد أن دفعت بعض علماء الغرب ـ قديما وحديثا ـ إلى الآراء السخيفة الباطلة عن عقيدته نحو أنه لم يكن يقيم للدين الإسلامى وزنا كبيراً أو إنه كان مسيحيا فى الباطن ويتظاهر بالإسلام ، أو انه لم يكن يؤمن بأى دين (٨) ، وهو مجرد هراء .. وجدير بهذه المناسبة أن نذكر قول المؤرخ المنصف المعاصر نورمن دانيل « Normna Daniel » .

The period of turkish expansion was one in which horror was a good deal mitigated. The notion of tolerance in Christiandom was borrowed from Muslim practice.

(إن فترة التوسع التركى كانت إحدى الفترات التى قل فيها الفزع والإرهاب إلى حد كبير . وإن فكرة التسامح فى العالم المسيحى استعيرت من الممارسة الإسلامية) .

وكان من رحابة صدره أنه قبل من المؤرخ اليونانى قريتوولوس « Critobolus » كتابا عن حياته ، رغم ما فى هذا الكتاب من بعض المطاعن على سيرة الفاتح بجانب المدح الكثير . وكذلك مما كان يتحلى به من الصفات الكريمة ، التواضع للعلماء ورجال الدين ، ولم يكن قط جبارا متكبرا بالرغم مما بلغ به من القوة والعظمة ، ولو أنه كان تتغلب عليه بعض الأحيان حدة طبعه فى معاملة رجال الدولة والجنود (١٠) .. وقبل أن

---

(٨) أنظر تفاصيل هذه الآراء أو هذه التخريفات فى كتاب الرشيدى المذكور ، ص ٣٩٨ ـ ٩

(٩) انظر Norman Daniel, Islam, Europe and Imperialism, p. 13

(١٠) انظر للتفصيل عن حياته الشخصية وصفاته كتاب الرشيدى ، الفصل الاخير ٣٨٠ ـ ٤٢٤

ننتقل إلى الكلام عن إنجازاته العسكرية والسياسية والحضارية يحلو لنا أن ننقل رأى أحد كبار المستشرقين الإنكليز فيه ، وهو السيرتوماس أرنولد فى كتابه « الخلافة » ونص ترجمته : اذا كان أحد السلاطين العثمانيين يستحق بجدارة بأن يطلق عليه أعظم لقب يمنحه العالم الإسلامى ، فهو بدون شك محمد الثانى الفاتح بعد أن أسس عاصمة الإمبراطورية التركية فى القسطنطينية ، تلك المدينة المسيحية العظيمة التى كانت قد خيبت جميع محاولات المسلمين لفتحها عنوة لقرابة ثمانية قرون (١١) .

ثم هو أول سلطان عثمانى بل أول حاكم إسلامى أطلق عليه أهل أوربا لقب السيد العظيم « Grand Seigneur » ، والذى ظل يطلق على السلاطين العثمانيين بعد ذلك إلى عهود طويلة . بقى أن نقول كلمة فيما قيل عن صرامة الفاتح وقسوته ، وقتله لوزيريه خليل باشا العجوز ومحمود باشا صهره ، وما نسب اليه من قتل أخيه الرضيع ، ليس من شك أن الفاتح كان صارما وقاسيا على من يشتم منهم رائحة الكيد والدسائس والمؤامرات ، ولو كانوا من المقربين لديه . ولقد ثبت عنده أن الوزير الأعظم خليل باشا كان ممالئا الإمبراطور البيزنطى ، فصادر أمواله وحبسه فى أدرنة حيث مات فى الحبس . أما محمود باشا فرغم أنه خدم الدولة وقاد الجيوش الى انتصارات ، ولكنه كان أنانيا حقودا على القادة الآخرين وطالما أضر بذلك بمصالح الدولة العليا ، الى محاولاته للدس والوقيعة بين الفاتح وبين المقربين اليه من أساتذته وعلمائه ، وتكوين مراكز قوة بالتستر على بعض القادة الآخرين ، فلما تحقق الفاتح من ذلك استأصل شأفته . وكان من هذا القبيل قتله لدوق نوتاراس بعد الفتح ، وإمبراطور طرابزون اللذين تآمرا عليه . أما قصة قتله للأخ الرضيع فمن اختلاق المؤلف البيزنطى دوكاس ، ولا سند له من الواقع وكبرها هامر ونمقها ، وتناقلها منه المؤرخون المتأخرون ، ومنهم للأسف محمد فريد ، ولقد ناقش

(١١) Sir Thomas W. Arnold, The Caliphate, p. 135

الدكتور سالم الرشيدى هذه القضية بتفصيل ، وأثبت بأدلة قاطعة أنها موضوعة مختلقة (١٢) .. وبنى على ذلك المؤرخون الغربيون أن الفاتح فى قانونه المنسوب إليه وضع تشريع قتل السلطان إخوته .. وأورد هذا القانون لأول مرة المؤرخ ا لنمساوى هامر . ولكنه كما أثبت القاضى الباحث التركى على همت بركى ألاقسكى بالنقد الداخلى والتاريخى باطل، وانه اما مزور أو مدسوس عليه. (١٣) وبذلك تنهار هذه النهمة الشنيعةعليه.

فتح القسطنطينية (١٤) :

يتوج فتح القسطنطينية إنجازات السلطان محمد الثانى العسكرية فى الشرق والغرب ، بل يبدأ عهده بهذا الفتح الذى أكسبه لقب محمدالفاتح

---

(١٢) انظر كتابه محمد الفاتح ص ٤١٧ ـ ٤١٩

(١٣) انظر ابو الفتح السلطان محمد ص ١٩٩ ـ ٢٠٦

(١٤) لقد أفرده عدد من المؤرخين فى الشرق والغرب بالبحث والتأليف ، وأهمها واشهرها كالتالى :
أحمد مختار باشا : فتح جليل قسطنطينية (استنبول ١٣١٦ هـ) .
ضياء شاكر : كيف استولى الفاتح على استنبول (فى التركية أيضا ، ولكن بالحرف اللاتينى ، استنبول ١٩٤٢) .
الأمير شكيب ارسلان : « فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها » بحث فى كتاب حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٢١٨ ـ ٢٣٧ . محمد عبد الله عنان : « فتح الترك العثمانيين للقسطنطينية » (فى كتابه مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ص ١٣٦ ـ ١٦٦) . ولا غناء فيه اذ انه نقل محض من المؤرخين الغربيين المتعصبين امثال كبن ، وهامر ومور دتمان . وفصل الكلام فيه الدكتور الرشيدى فى الفصول الخمسة الأولى من كتابه المذكور محمد الفاتح (ص ٥٤ ـ ١٨٢) وهو أشمل وأوسع ما كتب فى هذا الفتح . أما فى اللغات الغربية فأهمها الكتب التالية:

Gibbon, The Decline ..... chap. LXVIII
Mordtman, Belagerung und Eroberung Constantinoples (Stuttgart 1958)
G. Schlumberger. Les Siege, La Prise et la Sac de Constantinople ..... (Paris : 1935)
E. Pears, The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Constantinople by Turks. (1903).
Sir. S. Runciman, The Fall of Constantinople, (1965).

فى التاريخ .. كان فتح هذه العاصمة البيزنطية العتيدة هدف المسلمين منذ العهد الأموى ، ثم غاية العثمانيين منذ أن عبروا بحر مرمره إلى الشاطىء الأوربى واستولوا على غاليبولى فى عهدهم الأول فى العقد الخامس من القرن الرابع عشر . ومهدوا لهذه الغاية بفتح منطقة تراقيا الغربية والشرقية، ثم شبه جزيرة البلقان الى شواطىء الدانوب .. وكاد هذا الفتح يتم فى نهاية هذا القرن على يد بايزيد الأول لولا ظهور الخطر المغولى آنذاك ، وما لاقاه العثمانيون من المحنة إثر هزيمتهم ، ثم الحرب الأهلية بعدها مباشرة .

كان هذا الفتح تطلعا دينيا منذ أمد بعيد ، كما أصبح ضرورة سياسية بعد قيام الدولة العثمانية فى آسيا الشمالية والغربية وشبه جزيرة البلقان ، ولم يكن يفصل شطرى دولتهم شمالا وجنوبا إلا القسطنطينية ، ولكنها ظلت قائمة كعاصمة الدولة البيزنطية منذ أن قبل الأباطرة البيزنطيون الدخول فى تبعية العثمانيين فى عهد مراد الأول ، وبعد معركة مارتيزا الفاصلة فى ١٣٧١ م على التحديد . بيد أن بعض هؤلاء الأباطرة ظلوا يكيدون للدولة العثمانية ــ بعد أن عجزوا عن محاربتها ــ بتأليب الدول النصرانية والبابا عليها آناً ، وبإغراء أمراء قرمان فى الأناضول الجنوبى بالثورة على الحكم العثمانى آناً آخر ، كما أنهم كانوا يحمون بعض الأمراء العثمانيين الفارين إليهم ، ويحرضون هؤلاء الأدعياء فى العرش العثمانى فى إثارة القلاقل فى وجه السلاطين العثمانيين ، أو يتلاعبون مع بعض هؤلاء السلاطين بمطالبة الأموال لقاء إحتفاظ هؤلاء الأدعياء .

وكان مراد الثانى والد الفاتح قد قرر إزاء هذه المؤامرات والتلاعب أن ينهى هذه المشكلة فى أول عهده ، فحاصر القسطنطينية فى ١٤٢٢م بجنود قليلة ، ولكنه انصرف عن إتمام الفتح لمشاكل جديدة فى الأناضول من جهة ، ولخضوع الإمبراطور البيزنطى له وتعهداته من جهة أخرى .. وكذلك حالت سياسته السلمية دون إنهاء هذه المشكلة رغم تصميمه بذلك

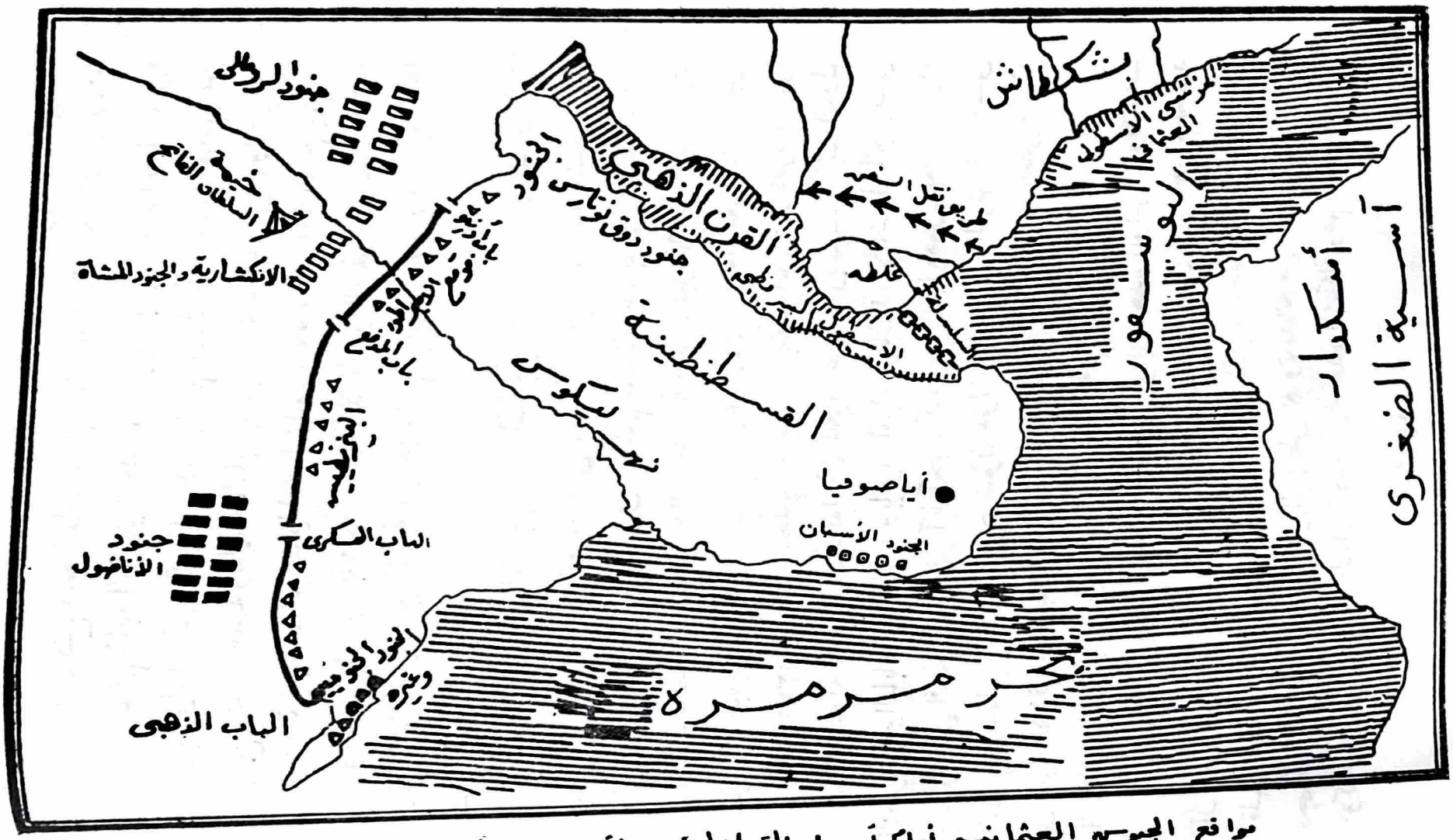

مواقع الجيوش العثمانيه أمام أسوار القسطنطينيه ومواقع جنود الأمبراطورية البيزنطيه.

عقب معركة وارنه « Varna » ، التـــى كان الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن قد لعب دور المحرض فيها ، ولكنه قبل اعتذارات الإمبراطور وعفا عنـــه مرة أخرى .

أما السلطان محمد الثانى فكان من طراز آخر ، لا يؤمن بأنصاف الحلول ولا تثنيه عن إرادته الصلبة أية محاذير أو عوائق . ورأى بنظرته الثاقبة أن دولته لا تأمن جانبه إلا بفتح هذه العاصمة ، وإلحاقها بدولته ، ليتصل قسم الدولة الجنوبى فى آسيا بشماله فى أوربا . ولكنه لم يـــكن يريد أن يلجأ إلى ذلك بالقوة بل كان يفضل أن يتم ذلك دون إراقة دماء ، وأهوال الحرب . فطالب الإمبراطور قسطنطين الأخير أن يتنازل عنها له ، ويعيش فى أمان مع جميع المراعاة الملكية . وازاء رفضه قرر فتحها بالقوة بإعداد لم يسبق له مثيل . وجعله يتخذ هذا القرار تحريض الإمبراطور لابراهيم أمير قرمان عليه ، ومطالبته السلطان بمضاعفة مرتب الأمير العثمانى أورخان الأسير لديه وإلا فيطلق سراحه ، ويمده بالجنود ضد الفاتح(١٥). فبدأ ببناء قلعة منيعة فى أضيق موضع من مضيق البوسفور على الشاطىء الأوربى ، إزاء القلعة الصغيرة التى بناهـــا بايزيد الأول على الشـــاطىء الأسيوى من هذا المضيق ، والتى تعرف بأناضولو حصار . وعرفت هذه القلعة الجديدة الجـــبارة برومللى حصار ، وبنيت على شكل مثلث ، وتم بناؤها فى أواخر أغسطس سنة ١٤٥٢م ، ونصبت على أبراجها القوية المدافع الضخمة وحامية من الجنود . وهكذا تم إغلاق هذا المضيق من جهة الشرق فى وجه الإمدادات التى يحتمل مجيئها من ناحية البحر الأسود ، كما وضعت قوة بحرية أخرى فى بحر المرمرة فى الغرب لمنع الإمدادات للعدو من جهة بحـــر ايجـــه .

كما أن الفاتح أعد أضخم قوة مدفعية لإتمام هذه المهمة التى عجز عنها كثير من الفاتحين فيما سبق . وكان هذا السلاح حديث العهد بالاختراع،

(١٥) أنظر تفصيل ذلك فى « Gibbon, VI, P. 425 » والرشيدى ص ٧٨ ــ ٧٩

وكان الأتراك بدأوا يصنعون بعض المدافع فى الأناضول .. ووصل فى هذا الأثناء أحد مهندسى سلاح المدفعية المجريين واسمه أوربان ، إلى بلاط الفاتح بعد أن فشل فى القسطنطينية وغيرها من بلدان أوربا فى الحصول على وظيفة وتقدير ، فرحب به الفاتح . وصنع هذا المهندس على طلب من السلطان عددا من المدافع الضخمة ، ومنها المدفع السلطانى أو المحمدية « Mahometta » فى المصادر الإفرنجية ، الذى كان أضخم مدفع عرفه التاريخ فى ذلك العصر ، وزنه سبع مائة طن ، وزنة قذيفته ١٢ ألف رطل ، ومرماه ميل واحد ، ويجره ٦٠ ثورا أو أكثر (١٦) .

وهكذا بعد تأهب واستعداد تام لمدة عام بدأ حصار القسطنطينية فى ٦ أبريل سنة ١٤٥٣م من جهة البر الأوربى ، حيث أقام الفاتح معسكره أمام الأبواب الثلاثة الكبرى للمدينة . ولم يكن يتجاوز عدد القوات العثمانية بشتى أنواعها ثمانين ألف مقاتل (٦٠ ألف فارس و ٢٠ ألف مشاة) حسب تقدير المؤلف اللاتينى فليلفوس « Philelphus » المعاصر الدقيق (١٧) .

---

(١٦) انظر وصف هذا المدفع فى كل من « Gibbon, VI, 426 » والرشيدى ، ص ٩١ ، و
C.M. Cipolla, European Culture and Overseas Expansion, P. 75-6.

(١٧) « Gibbon, vi, 429 » ، يختلف الرواة البيزنطيون المعاصرون فى تقدير هذه القوات الى حد يثير السخرية والضحك كما لاحظ « Oliphant Smeaton » محقق تاريخ كبن (vi, p. 430) من ١٦٠ الف الى ٤٥٠ الف . ولقد ناقش كريزى (ص ٧٩) هذه الروايات من ٧٠ الف الى ٢٥٠ الف ، وانتهى بقوله : « وربما العدد الاقل كان كافيا لعمليات الحصار العسكرية ، كما انه ليس من المعقول أن محمد الفاتح يزيد من مشكلاته بأخذ المسئولية على عاتقه لتموين هذا الحشد فى صفوف الجيش بدون فائدة » . واختار محمد فريد (ص ٥٩) رواية ٢٥٠ الف جندى ، واسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار (١ / ٥٠٦) ٢٠٠ الف ، واختار الرشيدى (ص ٩٨) رواية ١٥٠ و ١٦٠ الف جندى ، والتى ذهب اليها بعض المؤرخين الأتراك كأحمد مختار باشا وضياء شاكر . ونظرا الى هذا الاختلاف اكتفى كاتب مقال « Paliologi » فى تاريخ كيمبرج الوسيط بالقول بأن القوات العثمانية كانت تفوق على القوات البيزنطية عشرين مرة « Vol. iv P. 377 »

أما المدافعون عن القسطنطينية فيكاد يجمع الكتاب اليونانيون القدماءعلىأنهم كانوا لا يزيدون على ثمانية آلاف جندى ، وبهذا التقدير يأخذ المؤرخون الغربيون أو بين ثمانية وتسعة آلاف « Creasy, p. 78 » من البيزنطيين واللاتين • أما الكتاب الأتراك أمثال أحمد مختار باشا وضياء شاكر فيستبعدون هذا التقدير ، ويستقلونه • ويقدر ضياء شاكر عدد المدافعين بما لا يقل عن ٦٠ ألفا • ويقرر الرشيدى عددهم بأربعين ألفا (١٨) •

والدوافع لتضخيم القوات المحاصرة وتقليل القوات المدافعة ظاهرة وهى تهوين شأن الفتح أمام هذا الحشد الضخم • ولكن ضخامة القوات المهاجمة لم يكن لها شأن كبير فى الموضوع ، فالمسلمون فى حملة مسلمة ابن عبد الملك فى العهد الأموى حشدوا قوة أضخم « ولكن التقدم الفنى العسكرى كان الآن فى جانب العثمانيين » كما لاحظ البروفسور اوستروغورسكى « Ostrogorsky » • وهو الذى حسم فى الموضوع كما سنرى عما قريب • أما البيزنطيون فكانوا يعتمدون فى الدفاع على الموقع الحصين الفريد لعاصمتهم ومناعة أسوارها المزدوجة الضخمة ، والخندق العميق أمام السور الخارجى الممتد لستة أميال • ولم يهمل الأباطرة البيزنطيون أمر هذه الأسوار وظلوا يقوونها ، وكان آخر هذه التحصينات ما قام به يوحنا باليولوجوس الثامن بعد حصار مراد الثانى للمدينة •

وفوق ذلك فانه لمن الغرابة بمكان أن لا يخرج من سكان القسطنطينية البالغ عددهم أكثر من مائة ألف حسب رواية كبن الا ٤٩٧٠ مقاتل «رومى» على احصاء فرانزا البيزنطى • وإن دل هذا على شىء فانه يدل على جبن البيزنطيين كما ذكر فليلفوس المذكور آنفا ، أو على اعتمادهم على حصانة

---

(١٨) الرشيدى ، ص ٩٩

(١٩) The Medieval Cambridge History, IV. P. 386.

مدينتهم ومناعة أسوارها التى لا تقهر ، أو على العقائد الخرافية فى حدوث المعجزات من القديسات لحماية عاصمتهم من « البرابرة الكفرة » (أى المسلمين) حسب زعمهم •

واننى أميل ازاء ما تقدم من الكلام الى الأخذ بالرواية الغربية عن القوات المدافعة للإجماع القديم والحديث عليها ، ولكونها كافية للعمليات الدفاعية من فوق الأبراج والأسوار ، وكانت هذه نقطة الدفاع الهامة بالنسبة للبيزنطيين •

وعلاوة على ذلك فإن الإمبراطور قسطنطين ، بعد توحيد الكنيستين الشرقية والغربية فى احتفال رسمى بالقسطنطينية فى ديسمبر ١٤٥٢ م ، كان متأكدا من العون من البابا نيقولا الخامس ، ومن الدول النصرانية الأخرى بوساطته • وأتى بعض هذا المدد ، ولكن ليس فى المستوى الذى كان يرجوه الإمبراطور الخائف أمام استعدادات الفاتح ، وبعد كثير من القلق والذعر • والحقيقة أن البابا كان قد تنبأ ، رغم اتحاد الكنيستين ، ببصيرته السياسية أن خراب القسطنطينية آت لا محالة ، فاكتفى بارسال مبعوثه الدينى كاردينال ايسدور « Cardinal Isodor » فى بعثة ، ثم بعض القوات البحرية المكونة من جنوده وجنود جنوا والبندقية والأسلحة والمواد التموينية بعد بدء الحصار بأسبوعين • أما الدول المسيحية الأخرى فكانت مشغولة بالخلافات بينها ، ثم أنها جربت القتال مرارا مع العثمانيين، ولقيت الهزائم المتكررة على أيديهم •

وظلت المدافع العثمانية تدك أسوار المدينة لمدة أسبوعين ، ولكنها لم تنل فوائد ذات بال من هذه الأسوار الجبارة ، التى كان يصلح المدافعون الثغرات المحدثة فيها بكل همة ونشاط تحت قيادة جستنيانى والإمبراطور نفسه ، اذ كان دوى المدافع العثمانية أكثر من تأثيرها التدميرى • وعندما حاول الأتراك عبور الخندق بعد ملئها من الحطب والأحجار ، ودخول

السور من ثغرة صغيرة فى اليوم الثامن عشر تعرضوا للنار والحديد من السهام المحرقة والنار الإغريقية وقذائف المدافع البيزنطية ، كما فشلوا فى تحطيم السلسلة الحديدية الجبارة التى أغلق بها مدخل خليج القرن الذهبى أمام السفن العثمانية الرابضة فى بحر مرمرة .

وفى ٢٠ أبريل وصلت خمس سفن حربية من جهة البابا تحمل العتاد الحربى والمؤن ، وحدثت معركة بحرية بين الطرفين . وانهزم قائد البحرية العثمانية بلطه اوغلى ، ولم تستطع السفن العثمانية (٢٠) رغم كثرتها أن تمنع هذه السفن الحربية الكبيرة من العبور الى ميناء القرن الذهبى . وكان الفاتح يراقب بنفسه هذه المعركة من الشاطىء ، وكان جزاء بلطه اوغلى الإعدام لعدم نجاحه فى المهمة المفوضة اليه .

وارتفعت بهذا الانتصار معنويات البيزنطيين ، ووثقوا بأن العثمانيين لا يمكنهم أن ينالوا من عاصمتهم من جهة البحر لعدم وجود قوة بحرية عثمانية فى خليج القرن الذهبى . وهناك تفتقت عبقرية الفاتح بخطة فريدة لم تستعمل إلا مرة أو مرتين فى تاريخ الحروب اليونانية القديمة ، وهى أنه قرر إدخال السفن العثمانية من ميناء بشكطاش العثمانى (دولمه باغجه الحالى) فى مضيق البوسفور الى القرن الذهبى عن طريق البر ، وركبت فى سبعين سفينة عجلات صغيرة ، وفرشت مسافة ٣ أميال بالألواح الخشبية ، ودهنت هذه الألواح بالشحم ، وهكذا جرت هذه السفن عبر التل من جانب غلطه الى قاسم باشا فى خليج القرن الذهبى تجاه الميناء البيزنطى ، وذلك فى ليلة ٢١ أبريل ، ولإشغال الأعداء من الوقوف على هذه العملية المفاجئة أمر الفاتح بقذف شديد على أسوار المدينة طوال الليل كما تحالف مع الجنويين الذين كانوا يسكنون حى غلطه .

وفى صباح ٢٢ أبريل فوجىء البيزنطيون بمنظر السفن العثمانية فى

---

(٢٠) قدر عدد السفن العثمانية بين ٢٥٠ و ٣٥٠ سفينة ، ولكن معظمها كانت قوارب أو سفنا لحمل الجنود والبضائع ، ولم تكن فيها الا ١٢ سفينة حربية (الرشيدى ص ٩٣) .

القرن الذهبى احـدى نقاطهم الحصينة من جهة البحر ، فسقط فى أيديهم.

وهكذا بدأ العثمانيون يهاجمون أسوار المدينة من ناحيـة البحـر بالاضافة الى قصفهم لها من ناحية البر . وكان من حوادث الحصار الهامة اقامة الأتراك جسرا عائما من البراميل يصل بين بر الغلطة وبر ميناء القرن الذهبى ، وإحباط محاولتين للعدو لإحراق السفن العثمانية فى هذا الخليج.

وإزاء مقاومة البيزنطيين مقاومة مستميتة عن مدينتهم ، وخسـائر العثمانيين الفادحة فى الأرواح ، وفشل محاولاتهم لإيجاد ثلم واسـعة فى سور المدينة ، وإخفاقهم فى العمليات البحرية نصح الوزير الأكبر خليـل باشا المتواطىء مع الإمبراطور البيزنطى برفع الحصار ، وتأجيل محـاولة من الوزير العجوز الخائن ، بل قرر الاستمرار فى الحصـار ومضاعفـة الجهود ، ووافقه القادة المخلصون أمثال زاغنوس باشا وغيره . ولجـأ الفاتح الى عمليات عسكرية أخرى كنقب الأرض تحت الأسوار ، وإدخال جنوده من هذه الأنفاق المحفورة فى عدة مواضع . ولكن البيزنطيين عرفوا هذا ، وعندما وصل بعض الجنود إلى الطرف الآخر فوجئوا بالزيت المغلى والنار المحرقة تحرق وجوههم ، ومات هكذا مئات منهم . ولكن ازداد ذعر أهل المدينة من هذه العملية ، فبدأوا يخافون من ظهور الجند العثمانيين فجأة من تحت أقدامهم .

كما لجأ الفاتح الى تدبير آخر لتسلق جنوده السور ، فأمر ببناء برج خشبى ضخم ذى ثلاثة طوابق ، يجلس فيه الجنود مع آلات الحفر والنقب، والآخرون بالأسلحة والسلالم وغطى هذه القلعة المتحركة علـى العجلات بجلود سميكة مبللة كى لا تؤثر فيها نيران العدو ، وقرب هذا البرج إلى إحدى البوابات ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا ، اذ احترق البرج أخيرا بقذائف البيزنطيين المحرقة والنار الإغريقية التى كان يرمى بها العدو من فوق الأسوار متواصلا .

وهكذا بذل الجنود الأتراك أرواحهم بسخاء ، وقدموا تضحيات غالية دون أن يفت ذلك كله فى عضدهم ، فإن السلطان محمد كان مع جنوده يشرف على العمليات العسكرية بنفسه ويشد من عزيمتهم ويمنحهم القوة والثقة بإرادته الصلبة وثقته بالنصر •

أما الجنود البيزنطية واللاتينية فقد نال منهم الكلال والتعب ، وضاقت الأرض على أهل المدينة أمام خطط الفاتح المتجددة ، وبلغ بهم اليأس والتشاؤم كل مبلغ رغم ثبات الإمبراطور البيزنطى والقائد العام جستنيانى •

وحتى بعد اشتداد الضغط على العدو كان الفاتح قد أرسل صهره اسماعيل اسفنديار الى الإمبراطور ، يطلب منه تسليم المدينة ، ويعرض عليه إمارة تساليا يحكمها كتابع له ، حتى لا تتعرض العاصمة القديمة للخراب والدمار ، وأهلها لنقمة الجنود الأتراك الذين راح عدد كبير من أصحابهم ضحايا طوال الأسابيع العديدة • ولكن الإمبراطور فضل أن يموت مدافعا عن تاجه وعرشه وعاصمته • فقرر الفاتح الهجوم النهائى الأخير فى ٢٩ مايو وقبل ذلك بيومين (الأحد ٢٧ مايو) أمر جنوده بأن يصوموا تطهيراً وتزكية للنفوس ، ويطلبوا العون من الله عز وجل • وفى مساء ذلك اليوم أوقدت النيران والمشاعل والقناديل فى المعسكر العثمانى فانقلب الليل الى نهار فى توهج شديد ، وتعالت صيحات المسلمين بالتهليل والتكبير ، والاناشيد الحماسية ودقات الطبول • وروعت صيحاتهم المتوالية المتصاعدة « لا اله الا الله محمد رسول الله » الأعداء وراء الأسوار ، الذين كانوا قد ظنوا فى الأول أن حريقا كبيرا اندلع فى معسكر الأتراك ، فهرولوا فرحين انى السور ، ولكنهم فوجئوا بمنظر رائع مروع •

واستمر الاستعداد فى المعسكر العثمانى فى اليوم الثانى بهذه الطريقة، يطوف الشيوخ والعلماء بين صفوف الجند ويقرأون عليهم آيات الجهاد ،

وما أعد الله للشهداء من نعيم الجنة وحسن الجزاء ويلهبون نفوس الجنود بقولهم « إن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم نزل عند هجرته إلى المدينة فى دار أبى أيوب الأنصارى ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنـا » . فتكاد قلوبهم تخرج من صدورهم للقاء العدو ، والوصول إلى ذلك المكان حيث يرقد الصحابى المجاهد الجليل .

وأما الجانب الآخر فكان يجرى لديهم الحفل أيضا ، ولكنه حفل تأبين أمام المصير المحتوم، فإن الإمبراطور جمع أهالى المدينة فى كنيسة أياصوفيا، ليقام فيها ابتهال عام وخرج أهل البلد كلهم فى موكب دينى يحملون صور العذراء والصلبان ، تسودهم الكآبة . وخاطبهم الإمبراطور الشجاع ، وحضهم على القتال ، مذكرا اياهم بأنهم سلالة صناديد أثينا وأبطال روما ، ولكن روح التسليم كانت قد سيطرت على نفوسهم ، فراحوا يكثرون من النحيب، ويستغفرون إلى السيد المسيح والقديسين من خطاياهم، وينتظرون ظهور العذراء لإنقاذ عاصمتهم .

وفى صبيحة اليوم التالى (٢٩ مايو) فى الساعات الأولى من الفجر بدأ الهجوم الإسلامى العام بدوىٍّ هائل من هتافات التهليل ودقات الطبول فى جميع جهات البر والبحر واستطاع المدافعون أن يصدوا هجومين أولين من جهة البر عند باب سان رومان أو طوب قبو (باب المدفع) ، وبـاب أدرنة . وانسحب الجنود العثمانيون بعد قتال ضار عنيف حسب مخطط الفاتح . وظهرت أروع صور البطولة من جانبين فى هذا القتال ، فالأتراك يحاولون الصعود بالسلالم الى السور ، والمدافعون بقيـادة جستنيانـى الحازمة النشيطة يرمونهم من فوق السور بكل ما لـديهم من الأسلحـة والنار والحديد . إلى أن استطاع أحد الجنود الإنكشارية الضخم وهو حسن طوبال بالصعود مع رفاقه الثلاثين الفدائيين الى أعلى السور أمـام مطر منهمر من النبال والسهام ، وراح سبعة عشر من رفاقه ضحية هذه المحاولة البطولية الجريئة ، ومع أنه أصيب بقذيفة فظل يقاتل حتى قتـل

عندما انقض عليه عدد كبير من الجنود الأعداء . ولكنه مهد السبيل بدمه للآخرين من الجنود الأتراك ، فصعدوا بالسلالم فوق السور ، وكان الفاتح الشاب يدير هذا الهجوم الأخير بنفسه بعد أن اخترق الخندق على متن جواده جامبولات ، يحض جنوده ويشد أزرهم .

وأصيب فى هذه اللحظة جستنيانى بجرح فى ذراعه ، فانسحب من موقعه فوق السور وركب توه سفينته الراسية فى الميناء ، وغادر العاصمة الوشيكة السقوط الى جزيرة لمنوس . وتكاثر الجنود العثمانيون فوق السور ، واستطاعوا بعد مقتلة عظيمة أن يفتحوا البوابة الكبيرة (سان رومان) ، فاندفع إليه الجنود المهاجمون كالسيل ، كما رفرفت الأعلام العثمانية من على السور فى جهة باب أدرنه (٢١) ، وكذلك من جهة السور المواجه للقرن الذهبى ، وجرى قتال عنيف إثر ذلك فى شوارع المدينة ، وسقط قسطنطين دراغاسيس آخر أباطرة بيزنطة صريعا كما سقطت عاصمته العتيدة للفاتحين الأتراك ، ليكتب التاريخ فصلا جديدا فى عظمة هذه العاصمة المتداعية فى عهدها الإسلامى المجيد .

وبعد ظهر هذا اليوم (٢٩ مايو ١٤٥٣ م) دخل السلطان محمد راكبا جواده الأبيض جامبولات المدينة المفتوحة ، وتوجه الى كنيسة آيا صوفيا العظيمة حيث كان كثير من أهالى المدينة قد تجمعوا خوفا على أرواحهم ، ففتحت أبوابها للفاتح المسلم ، وفوجىء الأهالى المذعورون باذن الفاتح فى الاستمرار لصلاتهم ، ثم عفا عنهم . وحولت آيا صوفيا الى جامع ،

---

(٢١) وليس بصحيح ما يذكره بعض المؤرخين المحدثين والمعاصرين أمثال هامر وبيرز وشلانبرجيه وبرنارد لويس انه أهمل البيزنطيون اغلاق باب صغير خفى للمدينة يعرف بباب السيرك Cerca Porta ولمحه بعض الجنود الانكشارية ، فدخلوا منه ، واخذوا المدافعين على غرة ، وهكذا تم لهم النصر . إذ لم يشر اليه الا مؤرخ يونانى واحد وهو دوكاس، وكان بعيدا عن ميدان المعركة بخلاف فرانزا الذى شهد القتال ، ولم يذكر هذا الحادث .

وارتفعت من فوق سطحها أصوات « الله أكبر » وأدى فيه أول صلاة الجمعة . ويروى المؤرخون الأتراك أن الفاتح بعد دخوله إلى المدينة ظافراً ترجل ، وسجد على الأرض شكراً لله الذى أنعم عليه بهذا الفتح ، وصدق فيه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش (٢٢) .

ومنع بعد ذلك من نهب المدينة التى كان قد أباحها لجنوده لثلاثة أيام قبيل الهجوم الأخير تحميسا لهم حسب المعهود فى الحروب فى ذلك الزمان ، ولكنه فدى كثيرا من كبار الأسرى من ماله الخاص . وعلى هذا فليس بصحيح ما يرويه كبن وغيره من مؤرخى الفرنج من التقتيل الفظيع والنهب الشامل للمدينة فإن هذا الأمر يعارض سياسة الفاتح فى إعمار هذه المدينة من جديد . وقد يكون جرى بعض هذا القتل والأسر والنهب إزاء المقاومة التى أبداها سكان المدينة ، وانتقاما لما قتل من الجنود الأتراك فى حوادث الحصار . ولكنه لم يكن بشىء اذا قارناه بما جرى على أيدى الصليبيين عند فتحهم لمدينة القدس ، وما حدث فى نفس القسطنطينية فى احدى الحملات الصليبية المعروفة قبل فتح المسلمين لها بقرنين ونصف قرن . أما ما قاله كبن (ونقل عنه الأستاذ عنان فى مقاله المذكور سابقا) من قتل الفاتح لدوق نوتاراس فى حفلة ماجنة فحديث خرافة ، ولا يتصور ذلك من سلطان يأمر جنوده بالصيام قبيل المعركة بشهادة كبن نفسه .

وعندما دخل الفاتح الى قصر الإمبراطور ، ردد فى تأمل صوفى ، وهو يشعر بفناء مفاخر الدنيا الزائلة ، ردد قول الشاعر الفارسى :

العنكبوت تنسج خيوطها فى قصر القياصرة
واليوم يسمع صداه على قباب الأكاسرة

---

(٢٢) روى هذا الحديث فى عدد من كتب السنة كمسند الامام احمد بن حنبل والجامع الصغير للسيوطى ، وانظر ، الاقسكى ، المصدر المذكور ص ٢١

وأرخ هذا الفتح (بحساب الجمل) بجملة قرآنية لطيفة « بلـدة طيبة (٢٣) » (٨٥٧ هـ) وعمت بشائر الفتح فى جميع العالم الاسلامى ، اذ كتب الفاتح الى السلطان المملوكى الأشرف اينال وإلى شريف مكة ، وشاه فارس ، كما أرسل اليهم بعض الهدايا من الغنائم والأسرى • وأقيمت فى مصر الزينات والاحتفالات لمدة ثلاثة أيام ابتهاجا بهذا الفتح حسب كلام المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى •

لقد أطلنا الكلام فى أمر هذا الفتح وفى حوداث الحصار ، لنبين أنه لم يكن أمرا سهلا كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصوره ، بسبب ضـعف الدولة البيزنطية ، والانشقاق الكنسى فى الشرق والغرب ـ الذى جعل كثيراً من سكان المدينة يرددون القول مع الدوق نوتاراس أنهم يفضلون العمامة التركية على طاقية البابا ـ وللجيوش العثمانية الجرارة ، فجعل كل ذلك القسطنطينية لقمة سائغة للغزاة الأتراك • بل الحق أن الجنود العثمانيين بذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل هذا الفتح ، وقاموا بالتضحية والفداء حتى تم لهم النصر المبين • كما أن السلطان الفاتح أعد كل ما كان يمكن من الوسائل العسكرية الناجحة ، ولم يشك لحظة فى ثقته بالنصر حتـى تم له هذا الفتح •• وصدق المـؤرخ الفـرنسى الشـهير كـارادى فو « Carra de Vaux » فى قوله فى هذا الصدد : « ان هذا الفتح لم يتيسر لمحمد الفاتح اتفاقا ، ولا تيسر بمجرد ضعف الدولة البيزنطية بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له ما كان فى عصره من قـوة العلـم (٢٤) » •

---

(٢٣) وذلك بحساب تاء مربوطة كتاء مفتوحة .

(٢٤) الأمير شكيب ارسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٢٠ نقـلا من كتاب « مفكرو الإسلام » تأليف كارادى فو .

وفى كلمة المؤرخ المعاصر قريتووولس (٢٥) الموجزة :

« المـدافع قررت كل شىء (٢٦) » .

وكان من أثار هذا الفتح أن اتحد كلا القسمين الجنوبى والشمالى أو الآسيوى والأوربى للدولة العثمانية .. وتحولت العاصمة العثمـانية من أدرنه إلى القسطنطينية التى سميت فى العهد العثمانى بأسماء : اسلام بول (أى مدينة الإسلام) ودار السعادة ، واسمها الرسمى الآستانة ، وفـى العهد الكمالى قرر اسمها رسميا استنبول .

وأصبحت القسطنطينية بعد ذلك قاعدة للأعمال العسكرية فى الشرق والغرب ، وسهل للعثمانيين أن يمدوا نفوذهم وسيادتهم الى شواطىء البحر الأسود الشمالى وكييف (حاليا فى روسيا) والى المجر واليونان ، وألبانيا وسواحل البحر الأدرياتيكى الشرقية ، والى شرقى البحر الأبيض المتوسط.

وكان من آثاره بالنسبة لأوربا الغربية وخاصة ايطاليا أنها أفادت من العلماء اليونانيين الفارين اليها من القسطنطينية والجزر القريبة منها فـى حركة النهضة Renaissance الأوربية التى كانت قد بـدأت فى أواخر القرن الرابع عشر بترجمة التراث اليونانى الى اللاتينية . ويعتبـر بعضهم سقوط القسطنطينية بداية لعصر النهضة ، وهو قول غـير دقيق ومبالغ فيه . أما اللورد اكتن Lord Acton أستاذ التاريخ الحديث فى كمبرج فى أواخر القرن التاسع عشر فقد جعل الفتح العثمانى هذا بداية للتاريخ الحديث (٢٧) ، وهو يقصد بالطبع تاريخ أوربا الحديث .

---

(٢٥) هكذا رسم المؤرخ التركى زكى وليدى هذا الإسم فى ترجمته لـكتاب كريتوبولوس .

(٢٦) The Camridge Medieval History, Vol. IV, P. 386.

(٢٧) Lord Acton, Lectures on Modern History, P. 45.

خارطه
تبين مدى إتساع الدولة العثمانية
فى عهد السلطان محمد الفاتح وفتوحاته
مع الاشارة إلى السنين

فتح صربيا والبوسنه والهرسك وضمها الى الدولة :

كان فتح القسطنطينية حدثا عظيما بعيد الأثر فى مصير الدولة العثمانية فى أوربا فانها أصبحت الآن وريثة للإمبراطورية البيزنطية ، وكان للعثمانيين على كثير من أجزاء البلقان سيادة اسمية ، ولكنها كانت سيادة مزعزعة تقوى حينا وتضعف حينا آخر ، وذلك لأن العثمانيين بعد اخضاع هذه البلاد كانوا يقرون عليها أمراءها ، ويقبلون منهم التبعية لهم ودفع الجزية سنويا ، وكان هؤلاء الأمراء يستغلون الفرص المواتية فيتآمرون مع دولة المجر أو مع البابا ، ويعلنون استقلالهم عن العثمانيين • ولكن بعد أن تم فتح القسطنطينية التى كانت بمثابة مفتاح أوربا الشرقية سهل الطريق لتوطيد سيادة العثمانيين على البلقان ، وبدأت تتكون إمبراطوريتهم حقا ، وسهل على الفاتح إخضاع البلاد الصربية واليونان والأفلاق وشبه جزيرة القرم والجزر الرئيسية فى بحر ايجه وإلحاق بعضها الى الدولة • وتم كل ذلك خلال بضعة وعشرين عاما •• ولم يزد خلفاؤه شيئا ذا بال على فتوحاته فى أوربا ، الا بلغراد والمناطق المجاورة لحدود النمسا الجنوبية وجزيرة رودس فى عهد سليمان القانونى •

كانت بعض أجزاء صربيا تحت سيطرة العثمانيين والبعض الآخر تحت سيادة المجر ، وكان أمير صربيا إذ ذاك جورج برنكوفيتش الذى أجلسه العثمانيون على إمارة صربيا بعد أن قبل دفع الجزية السنوية لهم ، ولكنه لم يكن مخلصا فى تبعيته لهم ، بل كان يداريهم ويتربص بهم ، أو كما قال السلطان محمد الفاتح « يظهر الصداقة ويبطن العداوة » • ولما أتته رسل يوحنا هنيادى الذى عرض عليه الاشتراك فى الحلف الذى سيعقد ضد الفاتح الذى عظم خطره على أوربا بعد فتح القسطنطينية ، وافق على هذا التحالف • وعلم السلطان محمد الفاتح عن هذا التحالف فزحف على صربيا ، واستولى على معظم مدنها فى ربيع ١٤٥٥ م بينما هرب جورج

برنكوفيتش الى المجر ليعود مع هنيادى لمقابلة العثمانيين . ولم يبق أمام السلطان محمد الفاتح الا بلغراد باب المجر ، وأفزع زحفه دولة المجر والدول النصرانية الأخرى فى تلك المنطقة كما أخاف هذا الزحف البابا ، فأرسل البابا رسله الى مختلف البلدان الأوربية ، ألمانيا وفرنسا وأسبانيا للدعوة الى شن حملة صليبية . وكان الذى يبث هذه الدعوة يلقى حماسا فى نفوس عامة المسيحيين فى مختلف الأقطار النصرانية ضد الأتراك الوثنيين حسب زعمهم ، وليس هذا فقط بل شرع البابا صلاة خاصةعرفت بصلاة التبشير لطلب النصر ضد الأتراك كما أمر بضرب نواقيس الكنائس صباح كل يوم ، وسماه ناقوس الأتراك أى نذيرا من خطرهم ، ونداء الى جميع النصارى للاتحاد ضدهم. وتكون هذا الحلف الصليبى ، تحت قيادة يوحنا هنيادى ، من ملوك المجر وبولندا وألمانيا والبندقية وجنوا وغيرهم من أمراء النصرانية . ولم ينتظر الفاتح تحرك قوات هذا الحلف بل بادر وزحف الى بلغراد أحصن وأمنع مدن أوربا الشرقية فى ٥٠ ألف مقاتل فى ١٤٥٦ م ، وحاصرها من جهة البر ومن جهة نهر الدانوب . ولكن هنيادى استطاع أن يمزق الأسطول العثمانى الرابض فى الدانوب ، وكذلك فشل الهجوم الأول على أسوار بلغراد من جهة البر فى يوليو من هذه السنة . ثم عاود محمد الفاتح الهجوم فى شهر أغسطس من نفس السنة . وبينما كان السلطان يقاتل بنفسه عند أسوار المدينة أصيب بجرح بالغ ، واضطر بعد قتال مرير وخسائر عظيمة أن يرفع الحصار ، ويعود الى أدرنه بسبب البرد القارس . وبرز يوحنا هنيادى مرة أخرى كبطل للنصرانية ، وفرحت الدول الأوربية بهذا الانتصار ، وأخذوا يوم ٦ أغسطس عيداً لهم ولكن من حسن حظ العثمانيين مات هنيادى بعده بعشرين يوما ، أو قتل وهو يحاول انقاذ بلغراد على قول المؤرخ البلجيكى بيرين (٢٨) . وكان

---

(٢٨) Jacques Pirenne, The Tides of History, vol. ii, p. 317.

سبب اخفاق العثمانيين فى هذا الحصار أنهم لم يكونوا قادرين على جر المدافع الثقيلة الى تلك المسافات البعيدة عبر صربيا .

وانصرف السلطان محمد الى فتح جزيرة المورة . واضطربت أمور صربيا بعد موت ملكها جورج برنكوفيتش بسبب الخلافات العائلية بين أولاده وزوجته . وحسما للنزاع والقلاقل المستمرة رأى الفاتح إلحاق صربيا الى الدولة فضمت فى ١٤٥٩ م الى ولاية سمندره العثمانية .

وبعد ذلك أعاد محمد الفاتح فتح البوسنة « Bosnia » المجاورة لصربيا ، وفتح مدنها وقلاعها قلعة قلعة ، وفى منتصف سنة ١٤٦٣م كانت البوسنة كلها قد أصبحت ولاية عثمانية مرة أخرى ، ولم تجد ملك البوسنة النداءات التى وجهها الى البابا لطلب العون ، واضطر أخيراً إلى طلب الأمان من العثمانيين ، ثم قتل بعد ذلك لحبكه المؤامرات وغدره ، بينما اعتنقت أرستقراطيتها الإسلام طواعية ، ثم لعبوا دوراً كبيراً فى معارك الحدود الشمالية (٢٩) .

واتجه السلطان محمد بعد ذلك الى الهرسك « Herzgovina » وكان فتحها ضرورة حربية لمناعة حصونها من جهة ، ولموقعها الاستراتيجى الهام من جهة أخرى ، حيث أنها تشرف على البحر الإدرياتيكى . واستسلم أمير هذه البلاد لقائد السلطان محمد الفاتح وهو محمود باشا الوزير الأعظم. وقسم الهرسك الى قسمين ، القسم الأهم أدمج فى الدولة العثمانية، وأبقى الأمير الهرسكى على القسم الآخر ، وبعد موت هذا الأمير ضم هذا القسم أيضا الى الدولة العثمانية .

---

(٢٩) ويعرف هؤلاء المسلمون بالبشناك ، وفى ليبيا بقايا لبعض الأسر منهم .

فتح اثينا والمورة والجزر اليونانية فى بحر ايجه :

كانت أثينا تحكمها أسرة أكسيولى الإيطالية مـن فلورنسا ، وكانت تدفع للدولة العثمانية جزية سنوية ، وبعد موت حاكمها نيريو اكسيولى فى ١٤٥٣م اضطربت الأحوال فى أثينا لعدم وجود خلف قوى له ، اذ كانت زوجة نيريو تحكم البلاد كوصية على ابنه القاصر. ولكن سلوكها الشخصى المشين وسوء تصرفها فى شئون البلاد أثار غضب أهل أثينا الذين خافوا أن تقع البلاد تحت حكم عشيق الملكة من البندقية ، فلجأوا الى السلطان محمد الفاتح الذى كان قد برز فى ذلك الوقت كفاتـح للقسطنطينيـة ، وسألوه أن يساعدهم بتعيين ابن أخ للأمير السابق على عرش البـلاد . وبالطبع لم يكن يريد محمد الفاتح أن تخضع اليونان لدولـة البندقيـة البحرية القوية ، فلبى نداءهم . ولكن هذا الحل لم يضع حداً للخلافـات بين أفراد الأسرة المالكة وبين الاثينيين فقرر السلطان الفاتح ضمها الـى دولته . ووجه جيشا بقيادة عمر بن طرخان الذى استولى على أثينـا فى ١٤٥٦ م .

وقد زار السلطان محمد أثينا بعد سنتين من فتحها عند عودته مـن المورة فأعجب بآثارها وخاصة معبد أكروبول أوبارثينون « Parthenon ». وأمضى فيها عدة أسابيع وعطف على أهلها وأغدق عليهم العطايا ، ولم يمس روائع الفن اليونانى فى البناء بسوء . وبخلاف ذلك عندما دخل البنادقة أثينا بقيادة قائدهم مورسينى ، دمروا بمدافعهم كثيرا من هذه الروائع وخاصة معبد الأكروبول . ثم سرق من هذا المعبد الشهير السفير الانجليزى لورد إلجن « Lord Elgin » فى القرن ١٩ التماثيل الباقية الرائعة التى كانت تزين جدرانه . وهى الآن فى قاعة خاصة بالمتحف البريطانى فى لندن. ويقـول فنلـى Finlay مؤلف كتاب تاريخ اليونان « كـان اليونانيون قد ضاقوا ذرعا بالحكام المستبدين فى أثينا، ومتعصبى الكنيسة البابوية فاستقبلوا الحكم العثمانى بفرح وابتهاج » . ومثل ذلك يقـول

اللـورد اكتـن « Acton » : أن تسـامح العثمانيين فى الأمور الدينية جعل أهالى البلقان واليونان من أتباع الكنيسة الشرقية يقبلون الفاتحين الأتراك عن طيب خاطر (٣٠) .

أما المورة أو جنوب اليونان فكانت تابعة لدولة بيزنطة . وكـان يحكمها أخوان لقسطنطين الحادى عشر ، آخر أباطرة القسطنطينية . وأدت المنافسة والشقاق بين الأخوين الى اضطراب الأمور فى البلاد ، وبالإضافة الى ذلك فانه كانت تقيم فيها جالية ألبانية تشجعت بانتصارات الزعيـم الألبانى اسكندر بك على العثمانيين فى ألبانيا ، فبدأ هؤلاء يعيثون فساداً فى البلاد ، بل كادوا أن يستولوا على حكمها منتهزين فرصة التنـافس والإنشقاق بين الأخوين. ولم يكن يرضى هذا الأمر السلطان محمد الفاتح. فأمر قائده عمر بن طرخان بالقضاء على ثورة الألبانيين ، وإنقاذ الحاكمين البيزنطيين من حصارهم ، وبالفعل نجح هذا القائد فى مهمته فى ١٤٥٦ م . ولكن ساءت الأمور من جديد بعد عودته الى أثينا ، فاضـطر السـلطان محمد الفاتح أن يزحف اليها بنفسه فى مايو ١٤٥٨ م ليضع حدا للفوضى والاضطراب ، وأطماع الألبانيين . وفتح مدنها مدينة مدينة ، فتم فتـح جميع المورة وضمت الى الدولة العثمانية فى ١٤٥٩ م .

كان الجنويون يحكمون الجزر الست الـكبرى لمنوس ولسبوس وفسبوس وغيرها الواقعة قبالة مضيق الدردنيل فى بحر ايجه ، غير بعيـد عن شواطىء الدولة العثمانية الغربية. وكانت هذه الجزر ملاذاً لقراصنة البحر من جهة ، ومراكز لمؤامرات الكنيسة البابوية ضد الدولة العثمانية مـن جهة أخرى . فرأى السلطان الفاتح إخضاع هذه الجزر والسيطرة على بحر إيجه لتأمين حدود دولته الغربية من أطماع الدول البحريـة كالبندقيـة

---

(٣٠) Lord Acton, Lectures on Modern History, p. 45.

وجنوا • وتم فتح جميع هذه الجزر بين سنوات ١٤٥٥ ــ ١٤٦٢ م بعد معارك بحرية طاحنة •

فتح البانيا والأفلاق والبغدان :

كان اسكندر بك الألبانى وطنيا ومقاتلا شجاعا ، ألقى الهزائم على الجيوش العثمانية من مواقعه الجبلية الحصينة فى ألبانيا فى عهد مراد الثانى والد السلطان محمد الفاتح • واستمر يقاوم كذلك الحملات التى وجهها الى ألبانيا السلطان الفاتح بعد فتح القسطنطينية ، ولكن قوته بدأت تضعف شيئا فشيئا كما أن السلطان الفاتح احتاج الى فترة راحة لينصرف الى إخضاع الجزر اليونانية ، فعقدت بين الطرفين هدنة فى ١٤٦١ • ولكن لم تدم هذه الهدنة لأكثر من ثلاث سنوات ، اذ دعا البابا بيوس الثانى الى شن حملة صليبية على العثمانيين ، واستطاع رسوله أن يحمل اسكندر بك على نقض الهدنة• ولم ينتظر هذا الزعيم الألبانى وصول الجيوش الصليبية بل بادر الى الإغارة على أملاك الدولة العثمانية ثم هزم الجيوش العثمانية التى وجهها اليه السلطان محمد الفاتح مرتين • ولم يجد السلطان محمد الفاتح بدا بعد فشل قواده من أن يخرج بنفسه ، فزحف بجيش كثيف من مائة ألف جندى فى ١٤٦٥ م ، واستعاد بعض القلاع فى ألبانيا • وتجنب اسكندر بك لقاء هذا الجيش الضخم فى معركة مكشوفة• فغادر عاصمته كرويا بعد أن ترك بها حامية قوية الى بعض القلاع الجبلية المنيعة ، حيث بدأ ينقض منها بين فترة وأخرى على ساقة الجيش العثمانى ، ويفتك به • ورأى السلطان الفاتح أن الحصار سيطول ، كما استوجبت ظروف الأناضول الطارئة عودته اليه ، فترك قائده بالابان فى حصار كرويا • واستطاع اسكندر بك أن يحصل على المساعدات من البندقية فألقى الهزيمة مرة أخرى على الجيش العثمانى عن طريق الهجوم المباغت من الخلف •

وخلاصة الأمر أن ألبانيا لم تخضع بكاملها لحكم العثمانيين الا بعد موت اسكندر بك الألبانى فى ١٤٦٧ م موتا طبيعيا .

وكان اسكندر بك بجانب يوحنا هنيادى بطلا شجاعا ومقاوما عنيدا وزعيما مخلصا ، ومقاومته المستمرة أدت الى توقف الزحف العثمانى ، وأقامت سدا فى تقدمهم نحو الشمال كما سدت مقاومة هنيادى الطريق على العثمانيين الى المجر لمدة طويلة .

تقع الأفلاق والبغدان « Wallachia and Moldavia » الرومانيتان شمال نهر الدانوب تحيطها ثلاث دول كبيرة بولندا والمجر والدولة العثمانية . فكانتا بحكم الموقع الجغرافى الذى تشغلانه تحالفان هذه الدولة تارة وتلك تارة أخرى حسب ما يتراءى لهما ، وحسب ما توحى به الظروف ، كما أنهما ما كانتا تكفان عن الخصام فيما بينهما . وكان أول اتصال للعثمانيين بهذه البلاد فى عهد السلطان بايزيد ، وقد أخضع الأفلاق الجنوبية، لسيادة العثمانيين فى نهاية القرن ١٤م . ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الإمارة حليفة للعثمانيين تدفع لهم جزية سنوية . وفى عهد السلطان محمد الفاتح كان يحكمها رجل سفاك للدماء ، شديد البطش ، غليظ القلب، يفوق السباع فى القسوة والوحشية وهو دراكول . وكان أهل البلاد يلقبونه بالشيطان (٣١) . فنقض المعاهدة المعقودة السابقة مع العثمانيين ، وبدأ يشن الهجمات على ممتلكاتهم وإرهاب الجنود الأتراك عن طريق أشد أنواع التعذيب ، اذ كان ينصب خوازيق عالية من الحديد فى السهول ، ويركبهم عليها وهم أحياء فيموتون بألم لا يوصف . وكان يلجأ الى حرب العصابات وهزم عدة جيوش عثمانية نظامية ثم انهزم فى ١٤٦٢ م ، وأقام العثمانيون أخاه رادول على عرش الأفلاق . ولكن دراكول عاد الى بلاده

---

(٣١) Lane - Poole, Turkey, P. 92.

من جديد ، وأخيرا قتل فى ١٤٧٦ م غيلة على يد أحد عبيـده ، وذلـك لجرائمه البشعة التى تشمئز منها النفوس • وطيف برأسه فى البلاد •

أما البغدان أو مولدافيا فكان يحكمها أمير يسمى استيفان الأكبر ، وقد حارب ملك المجر والتتار وأحرز انتصارات عليهم ، كما أنه ألقـى هزيمة على الجيش العثمانى فى ١٤٧٥ م ••• بقواته المكونة من حلفـائه المجر وبولندا • وقد قام السلطان محمد الفاتح بنفسه بالهجـوم علـى مولدافيا فى ١٤٧٦ م وألقى هزيمة شنيعة على خصمه ، ففر الى بولنـدا منهزما • ثم عاد مع جيوش جديدة الى إمارته مرة أخرى ، ولكنها خضعت نهائيا لنفوذ العثمانيين بعد موته فى ١٤٨٤م ، فى عهد بايزيد الثانى ، ووصيته لابنه أن يعلن لهم الخضوع ، ويدفع الجزية •

الصراع مع أوزون حسن والفتوح فى آسيا الصغرى ومنطقة البحر الأسود :

بقيت فى أطراف آسيا الصغرى فى الجنوب والشرق بعض الإمارات المستقلة التى لم تخضع للسيادة العثمانية الى عهد السلطان محمد الفاتح ، وهى إمارة قرمان فى الجنوب وإمارة قزل أحمد أو قسطمونى التركية ، وإمبراطورية طرابزون المسيحية وإمارة سنوب « Sinope » فى الشمال الشرقى أو ساحل البحر الأسود الجنوبى •

وكانت هذه الإمارات مراكز لمؤامرات المنافسين ضد الدولة العثمانية. وكثيراً ما تحالفت مع القوى النصرانية ضدها • وعلى رأسها إمارة قرمان الجنوبية • وتوجه اليها الفاتح بحملة قوية قبل فتح القسطنطينية ، فأخضع حاكمها القرمانى لسيادته ، ثم فى سنة ١٤٧١ م قضى على وجودها نهائيا ، وضمها الى الدولة حسب مخططه فى توحيد آسيا الصغرى • وهكذا انتهت مشـكلة هذه الإمارة التى طالمـا رفعت السلاح ضد الدولة العثمانية منذ نشأتها الى بداية عهد الفاتح •

وفى سنة ١٤٠٦ م خضعت إمارة قسطمونى طواعية لمحمد الفاتح. وفى أوائل سنة ١٤٦١ م بعد عودته من أوربا توجه الفاتح الى أماصرة ، المستعمرة الجنوية الغنية ، على شاطىء البحر الأسود شمال الأناضول ، وبحركة سريعة مباغتة داهم هذه المدينة فاستسلمت له دون مقاومة . وبعد ذلك تنازل له أمير سنوب اسماعيل عن امارته فى نفس السنة ، وذلك بطريقة دبلوماسية دون أن يضطر الفاتح الى إراقة قطرة من الدماء . وعوضه الفاتح ببعض المناطق فى الاناضول ، وعين ابنه حسن حاكما على سنجق بولى . وعاش اسماعيل مكرما معززاً فى مدينة فلبه فى روملى .

أما إمبراطورية طرابزون المكونة من مدينة طرابزون أو طرابزنده الساحلية شرقى سنوب فكان يحكمها آل كومنين من أسرة أباطرة بيزنطة ، منذ أمد بعيد .. وكانت هذه الإمارة قد أصبحت فى هذه الآونة أى بعد سقوط القسطنطينية وكرا للمؤامرة الكبرى ضد الدولة العثمانية بتحريض من البابا ، واشتركت فى هذه المؤامرة قوتان كبيرتان : الأمير أوزون حسن(٣٢) ، صاحب الدولة التركمانية فى أرمنية واذربيجان ، والبندقية . فكان أوزون حسن ، الأمير التركمانى من تركمان آق قيونلى (٣٣) ، كان يريد أن يمد نفوذه شرقى الأناضول. وكانت البندقية تريد أن تسخر أوزون حسن وامبراطور طرابزون ، داود « David » لضرب الدولة العثمانية من الخلف ، بينما هى تحاربها فى البحر فى الجبهة الأمامية ، أى فى البحر الإدرياتيكى وسواحل دلماشيا . وكان داود إمبراطور مدينة طرابزون يحلم بأن يستولى بمساعدة هاتين الدولتين على القسطنطينية ، ويصبح وريثا

---

(٣٢) أنظر عنه مقال مينوروسكى فى دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ج ٥ ص ٢١٣ ـ ٢٢٣) .

(٣٣) ينقسم التركمان الى فرعين رئيسيين قره قيونلى أو أصحاب الخراف السود ، وكانوا يحكمون مناطق تركستان على حدود الصين فى هذه الآونة ، وآق قيونلى أو أصحاب الخراف البيض ، وزعيمهم اوزون حسن ، وكانوا يقطنون حول بحر قزوين شمالى ايران .

شرعيا لدولة بيزنطة المنهارة • وتوطدت العلاقات بين أوزون حسن وإمبراطورطرابزون بزواج الأول بأختهذا الإمبراطور، وتبودلتالسفارات بين هذه الدول الثلاث وبين البابا أيضا •

وأسرع السلطان بعد نجاحه فى سنوب نحو أرضروم ؛ ليحول دون وصول الإمدادات من قبل أوزون حسن الى طرابزون • وخاف أوزون حسن من هذا الزحف المفاجىء ، فأرسل والدته سارة خاتون سفيرة الى الفاتح ، فاحتفى بها السلطان ، وعرض على أوزون حسن عقد الصلح على أن يكف من مساعدة إمبراطور طرابزون ، فقبل أوزون حسن هذا العرض•

وهكذا بعد الإطمئنان من ناحية أوزون حسن سارع الفاتح الى طرابزون ، بينما توجه الأسطول العثمانى من ناحية البحر لحصار المدينة والحيلولة دون المساعدات من ناحية الكرج وسواحل البحر الأسود الشمالية • وبهذا وقع حاكم طرابزون فى الفخ ، ولم يسعه الا التسليم دون أن يتجرأ على المقاومة• وقدم ابنته آن ليتزوج بها الفاتح • وعفا عنه الفاتح • وعاش داود بعد ذلك فى ادرنه ، ولكنه أعدم بعد مدة لتآمره من جديد مع البندقية والبابا • وهكذا تم الاستيلاء على طرابزون فى أواخر ١٤٦١ م ، وقضى الفاتح على المؤامرة الكبرى التى كانت قد دبرت ضده ، كما تم بهذا الفتح توحيد جميع آسية الصغرى تحت لواء الدولة العثمانية وخاصة بعد أن قضى الفاتح على البقية الباقية من قرمان فى السنوات التالية •

ولكن أوزون حسن المحارب الطموح والسياسى المتقلب ظل بسياسة الغدر وانتهاز الفرص يثير القلاقل فى وجه الفاتح ، فتوطدت علاقاته مع البندقية ، والتى استقبل سفيرها فى بلاطه فى ١٤٦٣ م ، كما أنه تودد الى سلطان مصر المملوكى ليتحالف معه ضد الدولة العثمانية • وبعد انتصاراته على ملوك فارس والعراقين وخراسان من أسرة المغول فى سنتى ١٤٦٧ و ١٤٦٩م وامتداد ملكه الى بلاد ما وراء النهر ازدادت أطماعه ، وبدأ يتطلع

الى ممتلكات الدولة المملوكية المصرية فى الشام ، بعد أن ظهر ضعف هذه الدولة فى الصراع الذى حدث بين مصر وبين شاه سوار المتحالف مع محمد الفاتح على عرش امارة ذى القدر ، وانهزم الجيش المصرى المملوكى أمام شاه سوار .

واتخذ أوزون حسن سياسة الاستفزاز والتهديد ضد الفاتح بعد انتصاراته الآنفة الذكر ، وبعد توثيق روابطه مع البندقية ، وأمير قرمان (الذى لم يقض عليه الفاتح نهائيا بعد) ، هاجم مدينة توقات العثمانية شرقى الأناضول فى طريقه الى إمارة ذى القدر ، وأنزل بها الحريق والدمار . وعندئذ جد الفاتح فى قتال هذا الأمير الذى تلقب بلقب السلطان، والذى طالما راوغ وهدد الدولة العثمانية بالغزو ، وتحالف مع أعداء الاسلام من القوى الأوربية . فكلف الفاتح ابنه الأمير مصطفى بايقاف زحفه ، وألقى الأمير مصطفى هزيمة منكرة على ابن أوزون حسن فى سهل قونية فى أغسطس ١٤٧٢ م وأسره .

وتعدى جيش أوزون حسن الثانى على الممتلكات المصرية بجوار حلب ، بل بلغ به الطمع والجرأة الى أن أرسل بعض جنوده كحجاج الى الحجاز فى موسم الحج عام ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) حيث نجح هؤلاء فى إجبار حاكم المدينة المنورة أن يخطب على منابرها لأوزون حسن « الملك العادل حسن الطويل (٣٤) خادم الحرمين الشريفين » . وكان هؤلاء الجنود التركمان يريدون أن يقوموا بمثل هذه الحركة فى مكة ولكن أميرها التابع لسلطان مصر ، بادر ولاقاهم خارج مكة وألقى القبض على رؤسائهم وبعث بهم الى مصر .. وظهرت للسلطان قايتباى الآن نوايا أوزون حسن الحقيقية ، فكف عن معارضة الفاتح فى قضية إمارة ذى القدر ، وتعاون معه وخاصة عندما لاحظ آن الفاتح جاد فى محاربة هذا العدو الشرس الغادر .

---

(٣٤) وهى ترجمة لكلمة اوزون التركمانية .

وفى مارس ١٤٧٣ م خرج الفاتح بنفسه فى جيش ضخم نحو سيواس لملاقاة عدوه فى معركة فاصلة ، وألقى عليه هزيمة ماحقة فى معركة ترجان عند أعالى الفرات فى هذه السنة ، ومزق جيشه شر ممزق ، ولاذ أوزون حسن بالفرار .. ولم يلاحقه الفاتح رغم إلحاح بعض قواده وأبنائه لأنه كما قال لم يكن من سياسته تقويض الممالك الإسلامية . وانما قصد من محاربته كف أذاه ، وهذا ما نجح فيه بعد انتصاره الحاسم الأخير على هذا العدو ، الذى ثار عليه بعض قواده وأقاربه بعد ذلك بقليل ، ثم وضع موته حدا لتهديداته لكل من الدولة العثمانية ومصر .

وبعد دحر خصمه القوى أوزون حسن ، وتوحيد آسية الصغرى ، وبسط السيادة على جميع ساحل البحر الأسود الجنوبى ، وجه محمد الفاتح عنايته نحو الساحل الشمالى للبحر الأسود . وكانت فى هذا الساحل بعض المستعمرات الجنوية الهامة ، وكانت جنوا بواسطتها تسيطر على تجارة البحر الأسود منذ القرن الرابع عشر ، بينما كان يحكم داخل شبه جزيرة القرم أو القريم Cremia خانات التتار المسلمون ، وكانوا فى نزاع فيما بينهم فى هذه الآونة ، فطلبوا العون من الفاتح لحل النزاع . ولقد خاف السلطان أن يستغل الجنويون هذا النزاع ، ويتدخلوا فى شؤون مملكة خانات التتار . كما أنه لم يكن من الطبيعى أن يقبل الوجود الجنوى فى هذه المنطقة ، وسيطرتهم على مصادر الثروة فيها ، وخاصة مدينة كفه (٣٥) Caffa البحرية والتى كانت تدعى القسطنطينية الصغيرة لغناها ومناعتها .

فوجه الفاتح وزيره الأكبر أحمد كدك باشا (أو أحمد الأثرم بالعربية) فى حملة بحرية قوية فى ١٤٧٥م . واستسلمت له كفه بعد أربعة أيام من

---

(٣٥) يخلط بعضهم ، ويرسمون اسمها كييف ، والحقيقة ان كييف Kiev مدينة فى اوكرانيا .

الحصار والقتال ، وقضى على الوجود الجنوى فى سواحل القريم • وبعد ذلك استولى على جميع شبه الجزيرة ، وقبل خان القريم الدخول فى تبعية الدولة العثمانية ، وظلوا كذلك لمدة ثلاثة قرون •

وأصاب كريزى Creasy حينما اعتبر هذا الفتح من أهم فتوح السلطان محمد الثانى بعد القسطنطينية(٣٦)• وذلك لانهااستطاعتأى الدولة العثمانية بعد سيطرتها على هذه المنطقة ، أن تسد المنفذ البحرى الهام الى منطقة الشرق الأوسط الحيوية فى وجه العملاق الروسى ــ الذى أستيقظ من سباته الطويل فى القرن الثامن عشر ــ لمدة أربعة قرون • وظل البحر الأسود طوال هذه المدة بحيرة عثمانية • ليس هذا فقط بل امتدت سيادة الدولة العثمانية نتيجة هذا الفتح الى بحر آزوف وشواطىء روسيا الجنوبية فى العهود التالية ، ثم إلى منطقة أوكرانيا فى الداخل •

الصراع مع البندقية :

كانت البندقية أقوى الدول البحرية فى العصور الوسطى • ويمكن تقدير قوتها فى هذا المجال حسب وثيقة رسمية يرجع تاريخها الى ١٤٢٣م ، أنه كان يشتغل فى دور صناعة السفن بها ١٧٫٠٠٠ عامل ، وفى بحريتها ٢٥ ألف بحار •• وكانت بحريتها تتألف من ثلاثة آلاف سفينة تجارية ، وثلاثمائة سفينة حربية ، وكانوا يبنون ٤٥ سفينة كل عام (٣٧) ، بالإضافة الى غناها الهائل لسيطرتها على التجارة البحرية ، ولمنتوجاتها من الحرير والصوف (٣٨) .

---

(٣٦) Creasy, op. cit., P. 90

(٣٧) شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية (الترجمة العربية) ص ٦٥ ــ ٦٦ ، ويجب أن نتذكر أنها كانت تمتلك عدة جزر فى بحر الأرخبيل ، وموانى على سواحل دلماشيا فى البحر الأدرياتيكى .

(٣٨) أنظر تفاصيل ذلك فى المصدر المذكور فى نفس الموضع وغيره .

وكانت تستهين بقوة العثمانيين الصاعدة ، بل كانت لها أطماع فى الإستيلاء على بقايا الممتلكات البيزنطية فى بحر ايجه • كما أنها كانت تتبع الباباوات وتلبى نداءاتهم للاشتراك فى حملات صليبية ، ولذلك دخلت فى الصراع ضد العثمانيين فى عهد مبكر يعود الى ١٤١٦ م ، ثم دخلت بسفنها وجنودها تحت الأميرال جيرولا مونتو الى جانب الإمبراطور البيزنطى فى حصار القسطنطينية الأخير • واضطرت بعد سقوط القسطنطينية الى دفع غرامة حربية لاشتراكها فى معارك الحصار ، كما رضيت بدفع الرسوم على بضائعها التجارية ، وبعقد اتفاق سلمى مع الدولة العثمانية فى ١٤٥٤ م • وهكذا غيرت سياستها العدائية تجاه الدولة مقابل مكاسب مادية (٣٩) •

ولكنها عادت فبدأت تساعد اسكندر الألبانى بالجنود والأموال والعتاد فى صراع هذا الثائر ضد الدولة • كما أنها من جهة أخرى حرضت أوزون حسن التركمانى ، حاكم الدولة التركمانية على حدود الدولة العثمانية فى الشرق ، ضد الفاتح ، وساعدته ببعض العتاد • ونتيجة لهذا بدأ الصراع الحربى بين البندقية وبين الدولة العثمانية فى ١٤٦٣ م ، وظلت المعارك البحرية بين الطرفين مستمرة لمدة ١٦ عاما • ولم تكن البندقية فى هذا الصراع وحيدة بل كانت استمالت اليها أوزون حسن التركمانى القوى، الذى كان يضغط على العثمانيين فى آسية الصغرى، والزعيم الألبانى الشجاع العنيد الذى كان يحارب العثمانيين فى ألبانيا • بل لم تتورع جمهورية البندقية أن تفكر جديا فى دس السم للفاتح (٤٠) •

واستطاع الأتراك خلال المعارك العديدة أن يستولوا على ثغر نجربون « Negerpont » أو اغريبوز كما يسميها الأتراك ، وكانت مجن المسيحية وحصنها حسب تقرير بندقى • وكان لهذا الانتصار دوى كبير

---

(٣٩) نفس المصدر ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧

(٤٠) شارل ديل ، المصدر المذكور ، ص ١٣٩

فى الغرب بأسره ، وفى الوقت نفسه اجتاح الأتراك ساحل دلماشيا « Dalmatia » التابعة للبندقية ، فطلبت البندقية الصلح • ولكن السلطان محمد رفض ذلك ، وظلت الحرب مستعرة فى ألبانيا ، وبحر الأدرياتيك وشواطىء بحر ايجه • ومنى حليف البندقية فى الشرق ، أوزون حسن ، بهزيمة شنيعة فى ١٤٧٣ م ، وسقطت كرويا « Croia » عاصمة ألبانيا فى ١٤٧٨م • وحاصر السلطان مدينة اشقودره على الشاطىء الشرقى لبحر الأدرياتيك •

وبدأت قوى البندقية تضعف وتخور • فرضيت بالتوقيع على صلح مهين لها • وعقدت بين الطرفين ــ بعد عديد من السفارات (٤١) ــ معاهدة صلح فى ١٤٧٩م ، تخلت البندقية بموجبها عن نجربون وأرجوس وشقودرة فى البحر الأدرياتيكى • كما تعهدت أن تدفع للدولة العثمانية عشرة آلاف دوقة ذهبية كل سنة كضريبة للاتجار فى الأراضى العثمانية (٤٢) •

وهكذا انتهت هذه الحرب الطويلة الأمد بالنسبة للبندقية بضياع أيوبيا « Euboea » وشمال ألبانيا ، وضعفت قوتها فى البحر الى درجة يرثى لها ، بينما ازدادت قوة العثمانيين بحيث بدأوا يهددون بحر الأدرياتيك بأكمله (٤٣) •

حصار رودس واحتلال العثمانيين للشاطىء الإيطالى :

بقيت فى بحر ايجه قوة مسيحية عنيدة ، وهم فرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد اشتركوا فى الحملات الصليبية على فلسطين فيما مضى ،

---

(٤١) انظر ذكر هذه السفارات والرسائل المتبادلة بين الطرفين فى كتاب :
Documents from Islamic Chanceries, edited by S. M. Stern, Article : Six Ottoman Documents, by V.L. Menage, pp. 81-118

(٤٢) شارل ديل ، المصدر المذكور ص ١٤٠

(٤٣) V. L. Menage, loc. cit., P. 81.

ثم استقروا فى جزيرة رودس . وأصبحت رودس ملجأ لقراصنة البحر المسيحيين الذين كانوا يهددون التجارة العثمانية مع مصر .. فوجه الفاتح فى ١٤٨٠ م حملة بحرية قوية بقيادة مسيح باشا لفتح هذه الجزيرة الهامة . ولكن فشلت هذه الحملة لمناعة قلاع رودس وموقعها الحصين ، وأكثر من ذلك لخطأ قائد الحملة ، الذى أعلن ، لأنانيته وجشعه ، قبل الهجوم النهائى أن الغنائم والأسلاب كلها ستكون للسلطان وحده ، وليس للجنود منها شىء . وكان ذلك طمعا منه فى حيازتها لا خدمة السلطان . فنقم عليه الجنود لذلك ، ولم يقوموا بحملة صادقة .. وكان جزاء القائد أن عزل من منصبه ، ولم يسمح له بدخول العاصمة العثمانية (٤٤) .

ولكن استطاع العثمانيون فى نفس السنة أن يضعوا أقدامهم فى حملة بحرية أخرى بقيادة أحمد كدك باشا ، فاتح القريم ، على شواطىء إيطاليا فى الجنوب الشرقى ، ويحتلوا بعد هجومهم المباغت مدينة أوترانتو « Otranto » الهامة قرب ميناء برنديزى فى « Taranto Gulf » وذلك فى ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠ م (٤٥) . وكان القائد العثمانى على أهبة الإستعداد بأن يواصل سيره داخل الأراضى الإيطالية ونحو روما بعد وصول الإمدادات ، ولكن موت السلطان الفاتح المفاجىء حال دون ذلك . ويعقب على هذا الحادث المستشرق الانكليزى لين بول « Lane-Poole » « إن موت محمد الفاتح أنقذ أوربا ، لأن الدور بعد أوترانتو كان لروما نفسها » .

---

(٤٤) الرشيدى المصدر المذكور ص ٣٦٥ ، اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ١٢ / ٥١٨

(٤٥) Lane-Poole, Turkey, p. 139, Creasy, op. cit., p. 92. ووهم اسماعيل سرهنك (١/٥١٧) فذكر هذا الفتح فى ١٤٧٨ م .

وفـــاة محمـد الفـاتح :

وهكذا بعد ثلاثين سنة من الحروب المتواصلة للفتح وتقوية الدولة وتعميرها فاجأ السلطان محمد الفاتح الموت فى ٤ ربيع الاول ٨٨٦ هـ / ٣ مايو ١٤٨١ م فى اسكدار فى معسكره وبين جنوده • اذ كان الفـاتح قـد أعد فى هذه السنة إعداداً قويا لحملة لا يعرف اتجاهها ، لأنـه كان شديد الحرص على عدم كشف مخططاته العسكرية حتى لأقرب وأعـز قواده • ولقد قال فى هذا الصدد ، عندما سئل مرة « لو عرفته شعرة من لحيتى لقلعتها (٤٦) » ، وهذه السرية العسكرية التامة كانت سر نجاحه فى كثير من حملاته وفتوحه • وهو مبدأ تكتيكى جد هام فى فن الحرب •• ودفن الفاتح فى الضريح الذى شيده فى جامعه بالقسطنطينية المعروف بجامع الفاتح • وبينما غلبت روح الكآبة والحزن على الأتراك لفقدهم سلطانهم المحبب ، وعم العزاء والرثاء فى العالم الإسلامى لموت هذا المجاهد الفاتح المسلم ، عمت مظاهر الفرح فى أوربا كلها بهذه المناسبة • فأقـام ملـك نابولى ، وفرسان القديس يوحنا وغيرهم الأفراح فى عواصـمهم ، وكان الابتهاج عظيما فى روما حيث أقيمت الصلوات فى كنائسها شكرا وفرحـا على موت الفاتح بأمر من البابا ، بل اتخذ يوم وفاته يوم عيد (٤٧) •

هكذا كانت هيبة محمد الفاتح فى نفوس أهالى أوربا عامـة وفى نفوس أهالى إيطاليا خاصة ، فتنفسوا الصعداء بمفارقته الدنيا • ولـكنه لم يفارق هذه الحياة إلا بعد أن أوجد قوة عسكرية إسلامية ترهب الأعداء وبعد أن شيد دولته الفسيحة أو الإمبراطورية العثمـانية حسـب تعبير الأوربيين ، على دعائم قوية من الأمن والنظام ، والرخاء والعمران ، وبعد أن رفع راية الإسلام عالية خفاقة فى ربوع أوربا الشرقية ، والبحار الأسود والأبيض المتوسط الشرقى والأدرياتيك •

---

(٤٦) Creasy, P. 92

(٤٧) الرشـيدى ، ص ٣٧٤

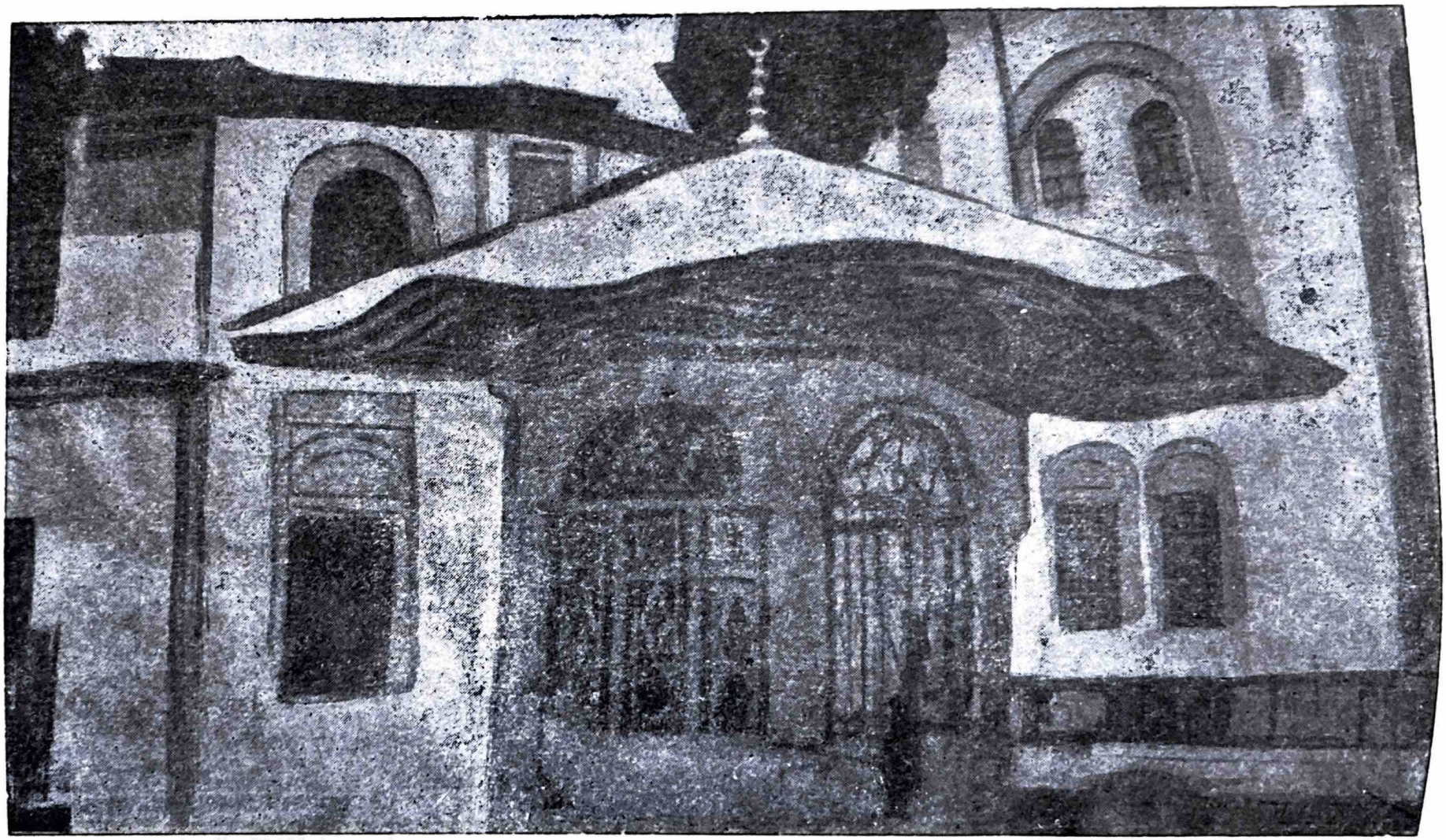

منظر لضريح السـلطان محمد الفاتح من الواجهة

ومن المؤسف أن يشبه مؤلف مصرى إحترف كتابة التاريخ ، وهو محمد عبد الله عنان ، إمبراطوريته بإمبراطورية جنكيزخان وتيمور لنك حقداً منه وحسداً ، ومجاريا لأقوال المؤرخين الأوربيين المتعصبين أمثال كبن وهامر وبيورى وموردتمان الذين استقى منهم معلوماته فى مقاله عن فتح القسطنطينية . وفى نفس النغمة الناشزة ينكر ــ مغضيا عينيه عن الحقائق التاريخية ومدفوعا بكراهيته للأتراك ، وتحميلا جرائر الخلف على السلف ــ للأتراك أىّ فضل فى إنشاء حضارة إسلامية (٤٨) . ونرى بطلان هذا الرأى وتهافته فيما يأتى من الكلام .

وعكس ذلك تماما قال زعيم عربى كبير ومؤلف باحث شهير ، الأمير شكيب أرسلان فى نهاية كلامه عن فتح القسطنطينية ، وذكر الآثار العثمانية بها . « وتأملت فى فضل أولئك السلاطين الذين لو لم يؤثروا فى الأرض الا هذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم ذلك فخرا فى الدنيا وأجرا فى الآخرة ، فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة تلك الفتوحات التى أشاد الزمان بذكرها ، وارتعدت لها الدول الأوربية بأجمعها ، وعاش الإسلام زمنا مديدا آمنا فى ظلها فلا ينكر فضائل هذه الأسرة إلا المكابر الجاحد الذى يحاول أن يستر نور الشمس بيده ، ولكن التاريخ شاهد أمين لا يكذب أهله (٤٩) » .

---

(٤٨) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، ص ١٦٥ ــ ١٦٦ . واشنع واكذب من ذلك اتهام عبد الرحمن الكواكبى (فى كتابه أم القرى) السلطان الفاتح باطلا بأنه اتفق مع فرديناند وايزابيلا فى إزالة ملك بنى الأحمر فى غرناطة لقاء تقاعس روما عن مساعدة نصارى الشرق فى انقاذ القسطنطينية . والحقيقة أن هذا الفتح قد تم قبل اعتلاء فرديناند العرش بستة وعشرين عاما . ولم يستول فرديناند وايزابيلا على غرناطة الا فى سنة ١٤٩٢ م أى بعد وفاة الفاتح باحدى عشرة سنة .. وهكذا اتهامه باطل لا سند له من التاريخ . ومن المؤكد أنه دفعه الى ذلك كراهيته للأتراك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، وما لقى منه من العنت .

(٤٩) حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٢٣٧ .

ومثل هذا رأى المؤرخين الأوربيين الكبار الذين اطلعوا على دقائق التاريخ الإسلامى فى مختلف عصورها كبروكلمن وكب « Gibb » وبرنارد لويس الدين كتبوا فصولا ضافية أو ألفوا فى حضارة الأتراك العثمانيين .

أما كراهية المؤرخين الأوربيين المتعصبين لمحمد الفاتح ، فيمكن أن نتصورها بما قاله مؤرخ للدولة العثمانية من القرن التاسع عشر ، وهو السير ادورد كريزى « Sir Edward Creasy » الذى قال بعد الكلام على فتوحاته « لا أحب أن أعود الى هذا الموضوع الكريه (٥٠) » .

ومثل ذلك ما قاله مؤرخ فرنسى من القرن السابع عشر جييه « G. Guillet » الذى ألف كتابا فى حياة السلطان الفاتح وحكمه وأهداه الى لويس الرابع عشر الشهير فقال فى مقدمة كتابه هذا : انه اذ يسأل الله لفرنسا طول البقاء ، وأن يهب له المجد والسؤدد والقوة والسعادة يرجو من الرب كذلك أن لا يظهر مرة أخرى على وجه الأرض حاكم كالسلطان محمد الفاتح ، فقد كان حكمه بلاء ونكبة على النصارى والنصرانية ... هذاما يجب أن يتمناه دوما بدون انقطاع لا الفرنسيون وحدهم ، بل جميع الشعوب النصرانية الأخرى (٥١) .

ولم يكن الأمر كما قال هذا المؤلف الحقود ، بل النصارى فى القسطنطينية واليونان والبلقان عاشوا فى أمن وطمأنينة ، كما أكد ذلك المؤرخ الفيلسوف الشهير ، فولتير من القرن الثامن عشر الذى قال : « ان الأتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن ، ولا تجيز أمة من أمم النصارى أن يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلا ، بخلاف الأتراك ،

---

(٥٠) History of the Ottoman Turks, P. 93

(٥١) Histoire de regne de Mahomet ii ونقله الدكتور الرشيدى فى كتابه المذكور ص ٤٢٣

فانهم يسمحون لليونانيين المقهورين بأن تكون لهم كنائس ، وكثير من هذه بجزائر الأرخبيل تحت مراقبة حكامهم (٥٢) » . ومثل ذلك قال مؤرخ انكليزى معروف فى أواخر القرن التاسع عشر اللورد اكتون « Lord Acton » عن المسيحيين فى البلقان الذين عاشوا راضين مطمئنين فى بلادهم فى عهد الفاتح وبعده ، بل فضلوهم على اللاتين (٥٣) ، أو النصارى التابعين للبابا ، لتعصبهم الدينى الممقوت . ومعاملة محمد الفاتح لبطريرق القسطنطينية ، عند انتخابه ، بكل مظاهر التبجيل والاحترام ما حير النصارى فى العاصمة وأثر فى قلوبهم .

النهضة العمرانية والعلمية فى عهد الفاتح :

لقد قلنا فيما مر أن السلطان الفاتح لم يكن مجرد فاتح عظيم وسياسى بارع بل كان أيضا منشىء حضارة تركية إسلامية زاهرة ، ونلقى الآن بعض الأضواء على منجزاته الحضارية الهامة .

ولا عبرة بأقوال المؤرخين المتعصبين القلائل أمثال جاك بيرين « Jacques Pirenne » الذى أنكر لجهله وتعصبه البغيض أن يكون للأتراك العثمانيين أى دور فى المجال الحضارى ، أو يكون لهم أدب وفن . وكانوا هم جنودا محاربين ، والجنود يدمرون الثقافة والحضارة (٥٤) . وليس هناك قول أبعد عن الحقيقة والصواب من هذا . فيا ترى ماذا يقول هذا المؤلف أو من كان على شاكلته عن الرومان ؟ نعم كان الأتراك العثمانييون جنودا محاربين ، ولكن ليس من طراز القوط Goths أو فيكنج « Vikings » البرابرة الأوربيين ، أو مثل الهون والتتار الشرقيين . بل هذبت نفوسهم تعاليم الإسلام وشريعة الإسلام ، والحضارة

---

(٥٢) نقل عنه اسماعيل سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار ج ، ص ٥١٠

(٥٣) Lord Acton, op. cit., P. 45

(٥٤) Jacques Pirenne, The Tides of History, Vol. ii, P. 393

الإسلامية التى عاشوا فى ظلها لمدة ثلاثة أو أربعة قرون ، قبل أن يبرزوا كفاتحين عظام على مسرح أوربا . فأسهموا بدورهم فى بناء تلك الحضارة الإسلامية التى وضعت قواعدها قبل ثمانية قرون فى مدينة صغيرة فى الجزيرة العربية ، مدينة النبى عليه الصلاة والسلام ، والتى ازدهرت فيما بعد فى عواصم دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وحان الوقت لتزدهر فى عاصمة الإسلام الجديدة ، القسطنطينية أو الآستانة . وآثار هذه الحضارة واضحة جلية فى الأدب والعلم والنظم والقانون لكل باحث نزيه، وهى فى مجال الفن والبناء ماثلة للعيان حتى اليوم لكل زائر وسائح .

نقل محمد الفاتح عاصمة دولته من أدرنه الى القسطنطينية بعد فتحها بزمن قصير . وأول عمل قام به الفاتح بعد هذا هو إعادة الأمن والنظام فى ربوعها ، فإنه لم يكن فتح تلك المدينة ليدمرها ويحطمها بل ليبنيها وينشئها من جديد، بعد اضمحلال وخراب موروث(٥٥). وسلك فى هذا السبيل سياسة العدل والتسامح ، سياسة الإنسان البانى ، لا الفاتح المنتقم . كان قد هرب كثير من سكان المدينة قبيل سقوطها وبعده مباشرة خوفا من نقمة الفاتحين الجدد ، فأصدر الفاتح بيانا عاما دعا فيه هؤلاء الفارين الى العودة الى وطنهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم ، ووعدهم بعيشة كريمة فى حكمه العادل . وكذلك كان هرب كثير من الجنويين الذين كانوا يسكنون ضاحية غلطة Galata منذ أمد بعيد ، ويقومون بالأعمال التجارية فى العاصمة البيزنطية ، كانوا قد هربوا الى الجزر اليونانية المجاورة بعد خيانتهم للعثمانيين أثناء الحصار وخوفا على أرواحهم ، فأمرهم السلطان عن طريق نداء عام بالعودة الى دورهم ومزاولة أعمالهم التجارية فى ظرف ستة أشهر ، وإلا ستصادر أموالهم

---

(٥٥) وقد ذكر هذا الخراب المؤرخ الجغرافى العربى ابو الفداء الذى زار المدينة فى بداية القرن الرابع عشر قائلا : « وداخل سورها مزارع وبساتين وبالمدينة خراب كثير » . تقويم البلدان ، ص ٢١٣

ودورهم التجارية ، فعاد هؤلاء وغيرهم من المسيحيين الى المدينة ، وزاولوا مهنهم وأعمالهم . وهكذا عادت الحياة والنشاط الإقتصادى الى مجراه الطبيعى فى ظرف أشهر قليلة .

كما أنه أتى بأسر تركية وعربية كثيرة من الأناضول ، وأسكنها فى العاصمة الجديدة لتتكون بها جاليات إسلامية وتساهم فى الحياة المدنية والإقتصادية ، فاستقر بها آلاف من الأسر الإسلامية ، وهكذا بدأت سياسة الفاتح فى إعمار المدينة . وانتعشت فيها حركة البناء والإنشاء ، والتجارة والاقتصاد ، فقد أصلح الفاتح بعض أسوارها المهدمة ، وشيد فيها عددا من المبانى الكبرى ، من الجوامع والمدارس والقصور ، وقلده فى ذلك وزراؤه وقواده .

وقبل أن نعرض بعض هذه الآثار يجب أن نشير الى نقطة هامة كان لها أثر كبير فى عودة الحياة الآمنة المطمئنة بالنسبة لجميع سكان المدينة وبصفة خاصة للنصارى ، والتى كانت بمثابة حجر الزاوية للحياة الاجتماعية فى ظل الحكم الجديد ، وهى سر بقاء الحكم العثمانى لقرون طويلة فى مناطق من أوربا كان معظم سكانها من المسيحيين . وهى سياسة التسامح التام فى الشئون الدينية لغير المسلمين ، أو الحرية الدينية الكاملة حسب الشريعة الإسلامية . وأشاد بهذه السياسة كثير من الغربيين المنصفين ، ولقد بالغ فى ذلك محمد الفاتح بحيث كسب قلوب رعاياه من المسيحيين اليونانيين . فانه بعد أن انتخب المسيحيون فى العاصمة جورج جينادوس بطريرقا لهم أقره فى منصبه الدينى الأعلى بجميع مظاهر التكريم والتبجيل التى كانت تجرى فى مثل هذه المناسبة فى عهد البيزنطيين ، بل زاد عليه . إذ استقبله السلطان فى موكب الأساقفة ، وتناول معه الطعام ، وقدم اليه بيده عصا البطريركية ، وألبسه التاج بنفسه ووقف له عند مغادرته بلاط السلطان .. أو سار معه خطوات ، وهذا ما لم يعمله أباطرة بيزنطة . ثم أصدر فرمانا وجعل البطريرق بموجبه فى مرتبة

الوزراء ، ووكل إليه الإشراف على الشئون الدينية والمدنية لأهل ملته كالزواج والطلاق والميراث وإدارة أراضى الأوقاف المسيحية. وأوجد بذلك الفاتح ما سمى فى الدولة العثمانية « بنظام ملت » ، والذى ظل متبعا حتى ألغاه مصطفى كمال أتاتورك فى العهد الجمهورى فى القرن العشرين .

ولقد قال الكاتب الفيلسوف الفرنسى فولتير معقباعلىهذه السياسة: « مما يثبت أن السلطان محمدا الفاتح كان عاقلا حليما تركه للمسيحيين المقهورين الحرية فى انتخاب بطريرق لهم ، فلما انتخب ثبته هو مع التعظيم ، وسلمه عصا البطارقة ، وألبسه الخاتم ، حتى قال ذلك البطريق عند ذلك إننى خجل مما لاقيته من التبجيل والاحتفاء الذى لم يفعله ملوك النصارى أصلا مع أسلافى (٥٦) » .

ولقد أعطى الفاتح لمهندس معمارى اسمه كريستوبول حارة مسيحية بتمامها لتكون ملكا له ولذريته من بعده ، وذلك لما قام به هذا المهندس من بناء بعض الأبنية للسلطان . وقال فولتير الذى ذكر هذا تعقيبا عليه « ليست هذه الحادثة من الحوادث التى تستحق الذكر فى التاريخ أى أن مهندسا كان يمتلك حارة بأكملها بل القصد أن نبين أن الأتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن . ولا تجيز أمة من أمم النصارى أن يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلا بخلاف الأتراك (٥٧) » .

وكان من نتيجة هذه السياسة أن بدأ عدد سكان القسطنطينية، الذى كان قد تناقص الى ٥٠ ألف أو ١٠٠ ألف حسب التقديرات المختلفة ، فى الازدياد بسرعة الى أن بلغ ٨٠٠ ألف نسمة فى سنة ١٦٠٠م ، وكان هذا العدد أكثر بكثير من عدد سكان أية عاصمة أوربية آنذاك (٥٨) .

---

(٥٦) نقله اسماعيل سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار (٥١١/١) .

(٥٧) نفس المصدر (٥١٠/١) .

(٥٨) Paul Coles, The Ottoman Impact on Europe, P. 4

ومن أهم آثار الفاتح العمرانية جامعه الكبير فى قلب العاصمة ، والذى يعرف بجامع الفاتح . وتم بناؤه فى ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م ، وبنى بجانبه مدارس الصحن الكبرى للتعليم العالى ، كما أنه شيد قبل ذلك ضريحا على قبر الصحابى الجليل المجاهد أبى أيوب الأنصارى وجامعا بجانبه فى ٨٦٣ هـ / ١٤٥٨ م ، ويقول كثير من المؤرخين الأتراك والعرب أن موضع قبر هذا المجاهد المسلم الأول انكشف فى المنام للولى آق شمس الدين أثناء حصار المدينة (٥٩) ، والحقيقة أن قبره كان معروفا قبل ذلك بزمن طويل ، فذكره الرحالة الهروى (أبو الحسن على بن أبى بكر) الذى زار القسطنطينية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فى كتابه الإشارات الى معرفة الزيارات قائلا : فى جانب سورها قبر أبى أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها الجامع الذى بناه مسلمة ابن عبد الملك والتابعون(٦٠). ولعله كان ذلك بعد إلقاء السلطان السلجوقى ألب أرسلان الهزيمة المنكرة على الإمبراطور البيزنطى ديوجينوس وأسره له على شروط ، منها بناء جامع للمسلمين فى عاصمته والحفاظ على ما فيها من جامع للمسلمين قديم .

ومن المصادفات الحسنة أن هذا الرحالة دعا بعد وصف القسطنطينية « نسأل الله تعالى أن يجعلها دار إسلام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى(٦١)»، والله سبحانه قبل دعوته ، فأصبحت القسطنطينية دار إسلام بعد حوالى ثلاثمائة سنة من زيارته .

---

(٥٩) أنظر مثلا ، حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٢٨ ، الرشيدى ص ١٤٩

(٦٠) رحلة الهروى (مخطوط فى دار الكتب المصرية) ص ٤٨ ، نقله عنه نورمن بينز فى كتاب الإمبراطورية البيزنطية (الترجمة العربية ٣٩٥).

(٦١) نفس المصدر المذكور فى نفس الصفحة .

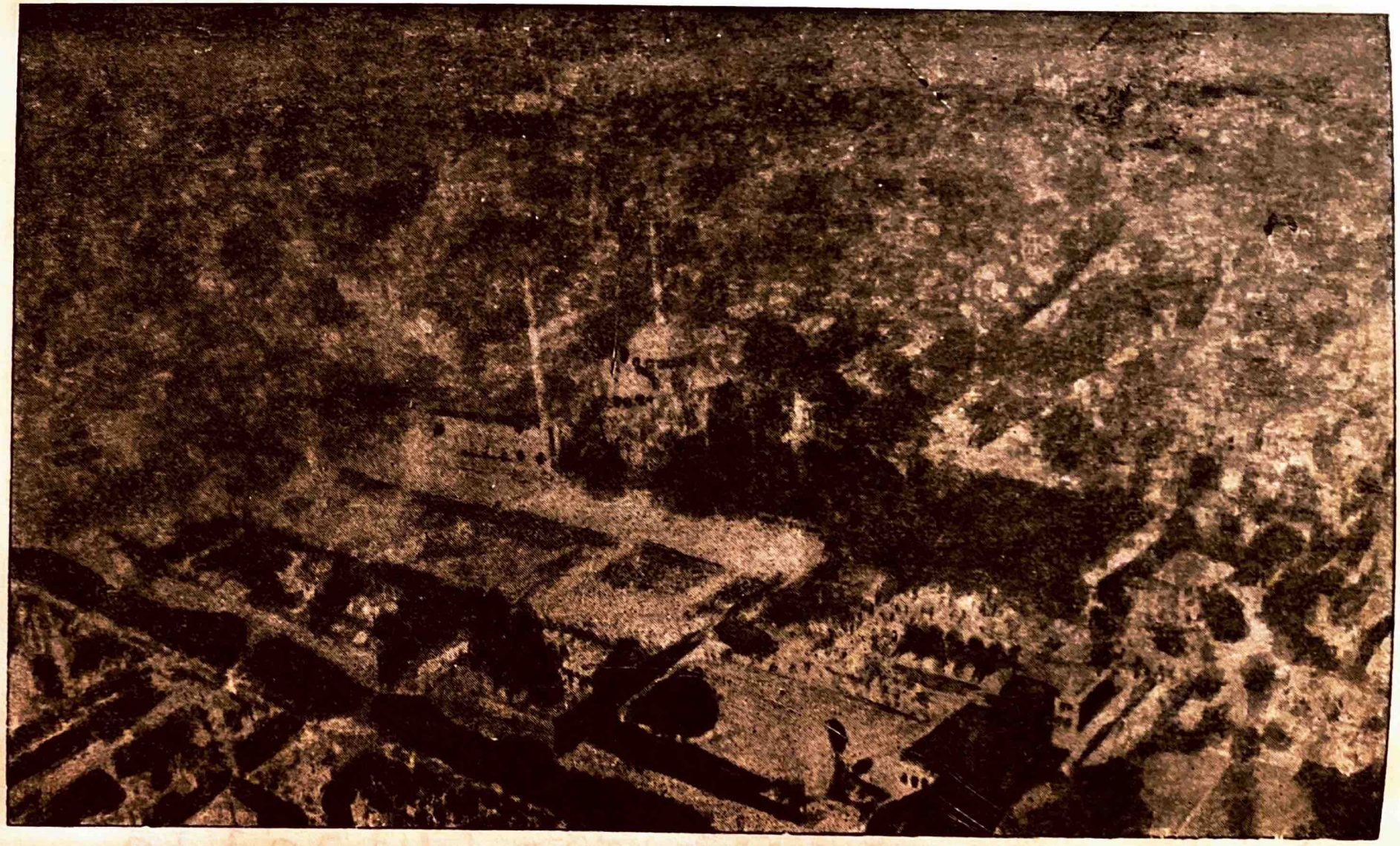

جـامع الفـاتح ومـدارس الصـحن والتتمة

فلعل السلطان الفاتح جدد هذا الجامع الذى ربما يكون قد هدم بعد العداء المتجدد بين البيزنطيين والعثمانيين فى الفترة المتأخرة . وأصبح من التقاليد العثمانية منذ ذلك الوقت أن احتفال تنصيب السلطان الجديد كان يجرى فى جامع أبى أيوب الأنصارى حتى نهاية الدولة العثمانية .

وبنى بعض وزراء الفاتح كمحمود باشا ومراد باشا جوامع أخرى مقلدا الفاتح ، وهى لا تزال معروفة بأسمائهم . وسرعان ما أضيف الى هذه الجوامع مكتبات ومدارس ، ودور سكن للطلبة وأصبحت القسطنطينية بعد مدة وجيزة مدينة الجوامع الممتازة فى العالم الإسلامى . إذ حذا حذوه السلاطين العثمانيون ووزراؤهم وأنشأوا فيها عشرات من الجوامع الفخمة .

ويقول بروكلمن إن تخطيط أهم مبانى المدينة فى العاصمة يرقى الى عهد الفاتح أيضا ، فقد أعاد إنشاء الأسوار المحيطة بها ، والتى كانت قد انهدمت أثناء الحصار ، كما بنى عند طرفها الجنوبى الغربى الى جانب بحر مرمره قلعة الأبراج السبعة (يدى قوله) . وأنشأ أحواضا لبناء السفن وترسانات لإنتاج الأسلحة والذخائر .

وفى سنة ١٤٥٤ م بنى قصرا فى وسط المدينة (والذى أصبح فيما بعد مقراً لوزارة الحربية وبه حاليا جامعة استنبول) ، واستقر به الفاتح بعد عودته من أدرنه واتخاذه القسطنطينية عاصمة جديدة لدولته . وبعد احدى عشرة سنة أى فى ١٤٦٥ م شرع الفاتح فى تشييد قصر جديد ، فى مساحة واسعة جدا ، على أعلى طرف التل المطل على بحر مرمرة والقرن الذهبى ليكون مقرا له وللحكومة . وتم بناء هذا القصر بعماراته العديدة فى ١٤٧٨ م وعرف لدى الأتراك بـ « سراى طوب قبو » (قصر باب المدفع) لكونه بالقرب من باب المدفع للمدينة (وهو بوابة سان رومان

القديمة) . أما الغربيون فعرفوه بـ « سراجليو (٦٢) » .

وظل هذا القصر الفسيح بأبنيته المتعددة مقرا للسلاطين ورجال بلاطهم الى القرن التاسع عشر عندما بنوا قصورا جديدة ، وانتقلوا اليها ، ومقرا للحكومة الى منتصف القرن السابع عشر عندما أعطى السلطان محمد الرابع وزيره درويش باشا بناية كبيرة لتكون مقرا له ولدواوين الدولة . والذى عرف بالباب العالى . وهكذا فكان سراى طوب قبو « مدينة القصر » كما سماه لين بول وغيره .

وطالما استجلب هذا القصر أنظار الأوربيين قديما ، فوصفوه فى مؤلفاتهم باسهاب وإعجاب ، وأحسن وأدق من وصفه أوتافيانو بون « Otaviano Bon » سفير البندقية الى البلاط العثمانى بين سنوات ١٦٠٦ ــ ١٦٠٩ م وترجم وصفه الى الانجليزية (٦٣) وينقسم هذا القصر الى أقسام رئيسية ثلاث لكل منه باب خاص ، فالأول للحرس والمطابخ والأصطبل والثانى للديوان (حيث كانت تعقد جلسات الحكومة تحت إشراف السلطان أو الوزير الأعظم) ، وخزينة الدولة ، والثالث الأخير لسكنى السلطان وكبار خدمه ، وفيه قسم مستقل للحريم . وهكذا فكان هذا القصر يتسع لعدة آلاف من الناس . ويقوم فى أجمل بقعة من المدينة القديمة يحيط به سور عظيم . ولكنه لا يضارع فى الفخامة والروعة الفصور الجديدة التى أنشئت فى القرن التاسع عشر ، كقصر دولمه باغجة ،

---

(٦٢) وهو تعريف لكلمة سراى الفارسية ، وعرف عندهم قديما بسرايل ايضا وسراى طوب قبو حاليا متحف . ويضم كنوز السلاطين من الجواهر والأثاث ، كما يضم مخلفات النبى صلى الله عليه وسلم ، ومكتبة السلاطين القيمة الغنية بروائع التراث الإسلامى فى اللغات الإسلامية المختلفة .

(٦٣) انظر مقتطفات من هذا الوصف فى كتاب برنارد لويس Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire, P. 67 infra وترجمتنا له باسم استنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية ، ص ٧٤ وما بعدها .

وقصر يلدز على الطراز الأوربى .

ويلاحظ حرص محمد الفاتح على الاحتفاظ بالروائع الفنية بأنه عندما حول كنيسة أيا صوفيا العظيمة الى الجامع ـ حسب المتبع فى تلك العصور لدى جميع الأمم من تحويل معابد المغلوبين الى معابد الفاتحين ـ لم يمح الصور المرسومة على سقف وجدران هذه الكنيسة ، بل اكتفى بتغطيتها بطبقة من الجص ، وبناء مأذنة عالية بها ، ومحراب فى داخلها ، كما قوى جدرانها من الخارج ببناء مساند لها فى أسفلها (٦٤) .

أما الحركة العلمية فى العاصمة العثمانية الجديدة فهى من أهم مميزات عصر الفاتح . ولقد عرفنا فيما سبق أن السلطان محمد نشأ نشأة علمية دينية ، وولع بالآداب والفنون ، ولم يقتصر نشاطه العلمى والثقافى بقراءته الشخصية واقتناء الكتب النادرة ومصاحبة العلماء والأدباء والشعراء وتشجيعه لهم فى داخل بلاده وخارجها ورعايته لهم ، بل يعود اليه الفضل فى الحركة التعليمية الكبرى التى قامت فى عهده وتحت رعايته الشخصية .

كان جده الأعلى أورخان بن عثمان أقام معاهد للتعليم الدينى العالى فى بورصة وازنيق بعد فتحه لهما فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ثم رعى مراد الثانى والد الفاتح هذه الحركة العلمية والتعليمية ، وبرز

(٦٤) حول مصطفى كمال أتاتورك جامع أيا صوفيا الى متحف فى عهده الجمهورى ومنع فيه الصلاة . ولكن ما زال حرسه الأتراك يتغاضون عن أولئك الزوار المسلمين الذين يحبون أن يصلوا فيه ركعتين فى ركن خفى . حدث هذا مع كاتب هذا البحث عند زيارته له فى ١٩٦٠ م فى صحبة صديق تركى مسلم متدين إذ جاء الى أحد الحراس الذى لمحنى وقال بواسطة صديقى انه أيضا يصلى فيه عندما يكون فى مأمن من العيون . هذا فى اياصوفيا ، اما فى جامع قرطبة العظيم والذى حوله الأسبان الى كنيسة ، ثم الى متحف فى العصر الحديث فلا تزال تقام فيه صلاة المسيحيين يوم الأحد فى كنيسة صغيرة فى وسط الجامع من داخله وشاهدت ذلك فى صيف عام ١٩٦٨ عند زيارتى لقرطبة .

خلال هذه المدة عدد كبير من العلماء الأتراك الأفذاذ الذين درسوا فى مدارس بلادهم وفى الشام ومصر .. وجاء الفاتح لينظم هذه الحركة التعليمية فى أعلى المستويات لتخريج العلماء والأساتذة والقضاة والمهندسين والأطباء ، فأنشأ بجانب جامعه الكبير (جامع الفاتح) فى ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م كلية للتعليم العالى عرفت بمدارس الصحن الثمان ، وعرفت بهذا الإسم لأنها أقيمت فى وسط المدينة بجانبى الجامع ، وكانت تتكون من ثمانية أبنية ، وألحقت بها ثمانى مدارس أخرى كانت تسمى بمدارس تتمة ، وهى بمثابة المعاهد الإعدادية قبل التخصص والمتخرجون منها يلتحقون إن شاءوا بمدارس الصحن للتخصص ، أو يعينون قضاة فى المدن الصغرى غير استنبول وأدرنه وبورصة .

وكانت كل وحدة من وحدات مدارس الصحن تشتمل على ١٩ حجرة وقاعة كبيرة لإلقاء الدروس والمحاضرات ، وكانت ١٥ حجرة منها مخصصة لسكنى الطلبة ، وحجرتان للأستاذ والأستاذ المساعد (المعيد) وحجرتان للفراش والبواب ، وهكذا فكانت ١٢٠ حجرة مخصصة لسكنى الطلبة ، يسكن فى كل منها طالب واحد يعرف بلقب «دانشمند» ، ويصرف لكل طالب ١٢ آقجة (عملة فضية) كمرتب شهرى لمصروفات الجيب .

وبنى بجوار هذه المدارس مطعما خيريا ، ومستشفى كامل المعدات . وكان الطلبة الذين يدرسون الطب يتمرنون فى هذا المستشفى . وكانت تدرس فى مدارس الصحن جميع العلوم المتعارفة من الدين والآداب والرياضيات والفلك والهندسة والطب (٦٥) . وكأنها كلية سكنية للعلوم والآداب والطب ، وهكذا فهذه المدارس العالية كانت خطوة إلى الأمام

---

(٦٥) استفدنا فى هذا التفصيل من كتاب « ابو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية لعلى همت بركى الاقسكى ، وانظر للتفاصيل الأخرى صفحات ٨٤ ـ ٩٣ منه . وانظر ايضا كتاب الدكتور الرشيدى المذكور ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦

فى حركة التعليم العالى فى الإسلام التى بدأت بجامعة القرويين فى فاس ، ثم الأزهر فى القاهرة ، فالمدارس النظامية فى بغداد ونيسابور وغيرهما فى العهد السلجوقى العباسى ، فمدارس الفاتح ثم مدارس سليمان القانونى فى استنبول .

وكان لهذه المدارس نظام دقيق فى الدراسة وامتحان القبول . ونيل الإجازة والإنتساب اليها يعد شرفا . والسلطان الفاتح نفسه انتسب اليها ، وحصل على حجرة خاصة له ، ولكن — كما يروى — بعد أداء امتحان القبول حسب لائحة الكلية (٦٦) . وكان الفاتح يزورها من حين الى حين حيث يستمع الى الدروس ، ويحضر بعض الامتحانات (٦٧) ويستقبل زواره فى حجرته بها .

وتولى التدريس فى مدارس الصحن الأساتذة الأعلام ، وتخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء والقضاة ، الذين قاموا بدورهم الملحوظ فى تنشيط الحركة العلمية فى أرجاء الدولة .

وبالإضافة الى هذه الكلية بأقسامها المختلفة أنشئت مدارس عالية تعرف بمدارس القصر ، وهى فى قصر الفاتح القديم باستنبول وقصر طوب قبو وقصره فى أدرنة . حيث تخرج عدد كبير من وزراء الدولة وقواد الجيش وكبار الإداريين ، إذ كانت العناية موجهة فى هذه المدارس الى تعليم اللغات والآداب وفنون الإدارة والحرب والتربية العسكرية .

يضاف الى هذه المدارس ، المدارس الأهلية الأخرى مع الجوامع الكبرى كمدرسة أيا صوفيا ومدرسة زيرك ومدرسة محمود باشا صهر الفاتح ووزيره . وكذلك عمت حركة التعليم فى المدن العثمانية الأخرى فى الأناضول وروملى (القسم الأوربى من الدولة ومركزه أدرنة) .

---

(٦٦) المصدر المذكور أعلاه ص ٨٠ هامش ١

(٦٧) الرشيدى ، المصدر المذكور ص ٣٨٥

ونبغ فى عهد الفاتح عدد كبير من العلماء الأعلام كالمولى الكورانى والمولى زيرك وخواجه زاده وعلاء الدين الفنارى وغيرهم ، وكان بعضهم أساتذة الفاتح كما ذكرنا فيما مر من الكلام . كما نبغ فى عهده عدد من الشعراء والأدباء بل الشاعرات أيضا فى اللغة التركية التى حلت محل الفارسية ــ لغة الثقافة الأدبية قديما ــ منذ عهد مراد الثانى والد الفاتح .

وكان أقدم شعراء الأتراك يونس امره (٦٨) (المتوفى حوالى ١٣٢١) فى عهد عثمان مؤسس الدولة العثمانية ، وكان شاعرا شعبيا متصوفا . ولكن الشعر الفنى الرصين فى هذه اللغة لم يظهر إلا فى عهد الفاتح . واشتهر من الشعراء فى عصره على شيرنواى ، وحمدى والهى وشهدى وغيرهم كثيرون ، ومن الشاعرات زينب ومهرى ، كما كان وزيره أحمد باشا كدك شاعراً غزليا ، وكذلك ستة وزراء آخرون كانوا ممن يقرضون الشعر . وكان الفاتح نفسه شاعرا واتخذ لنفسه لقبا شعريا ، وهو « عونى » على عادة شعراء الفرس والأتراك وشعراء الهند وباكستان ، وله ديوان شعر مطبوع باسم « ديوان عونى » ومن نم ولعه بالشعر والشعراء . ولتشجيع ذلك أنشأ فى كل من بروسه وقسطمونى من مدن الأناضول مدارس لتعليم الشعر الغنائى ، وأجرى مرتبا لثلاثين شاعرا فى بلاطه (٦٩) .

ونسج هؤلاء الشعراء على منوال الشعر الفارسى الصوفى والغزلى والملحمى ، والذى كان معروفا فى آسية الصغرى منذ عهد سلاجقة الروم ،

---

(٦٨) احتفلت تركيا فى ١٩٧١ بمرور ٦٥٠ عاما على وفاته . وانظر عن حياته ونماذج من شعره مقال جميلة قيراطلى بعنوان « المتصوف الشعبى التركى ، يونس امره » والمراجع القليلة المذكورة فى هذا المقال بمجلة « فكر وفن » عدد ١٨ سنة ١٩٧١ ، الصادرة فى هامبورج بألمانيا .

(٦٩) على همت الاقسكى ، المصدر المذكور ص ٣٩ وطبع ديوانه فى العصر الحديث باسم شعر الفاتح بالحرف العربى واللاتينى بأنقرة فى ١٩٤٦م.

والذين ورثت تراثهم الدولة العثمانية فى مجـال الأدب والفن والإدارة والحكم . فنظم حمدى قصتى يوسف وزليخا ، وليلى ومجنون على غرار ما نظمه الشاعران الفارسيان نظامى كنجوى وجامى . وبدأ شهدى بنظم التاريخ العثمانى على نمط الفردوسى فى « شاه نامه (٧٠) » ، ولكن عاجلته المنية . ولقد نظم الكلشنى نحو عشرين ألف بيت فى أسلوب « مثنـوى معنوى » لجلال الدين الرومى الشهير فى أدب التصوف ، وكذلك الشاعر الهى له « زاد المشتاقين » و « نتائج الأرواح » فى الشـعر الصوفى مثل شعر ابن عربى وابن الفارض من مشهورى متصوفى العرب (٧١) .

وكذلك نضج فى عهده النثر العلمى والفنى الذى كان قد بدأ بدايته الأولى كالشعر منذ عهد عثمان وأورخان بالكتابات الدينية والصوفية . فألف سنان باشا وزير الفاتح كتابه « التضرعات » فى المناجاة الدينية فى النثر الفنى المنمق (٧٢) ، كما ألف سكرتيره طرسون بيك تاريخا للدولة العثمانية يعرف بتاريخ أبى الفتح ، وكذلك ألف عاشق باشا زاده تاريخا آخر للدولة العثمانيةحتىعهد الفاتح، اشتهر باسم المؤلف. وهكذا تطورت كتابة التاريخ العثمانى فى عهده من المؤلفات الأولية كتواريخ آل عثمان مجهول المؤلف ومناقب آل عثمان وغيرهما وبلغ ذروة الكمال فى عهـد بايزيد الثانى ابن السلطان الفاتح فى أواخر القرن الخامس على يد ابن كمال باشا العلامة التركى الفذ .

كان من أثر تشجيع الفاتح للعلم والعلماء أن توجه الى بلاطه عـدد من العلماء والشعراء النوابغ من الأقطار الإسلامية الأخرى ، ومن هؤلاء العالم الفلكى الرياضى علاء الدين على قوشجى الذى جاء من بلاد ما وراء

---

(٧٠) وهو أضخم ملحمة شعرية فى سير الملوك الفرس (٦٠ الف بيت) نظمه الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى.

(٧١) وانظر عن غيرهم من الشعراء الأتراك فى عصر الفاتح كتـاب
A History of Ottoman Poetry, by E. J. W. Gibb, 6 Vols.

(٧٢) Lane-Pcole, Turkey P. 309

النهر مع أفراد أسرته بدعوة من الفاتح ، وأصبح من ندماء الفاتح وألف رسالة الحساب باسمه وسماها المحمدية (٧٣) ، وكذلك حسن بك التركمان الذى ألف رسالة فى علم الهيئة باسمه وسماها الفتحية (٧٤) (على كنيته أبو الفتح) ، والشاعر العالم الفارسى الشهير عبد الرحمن جامى الذى كان يرسل اليه الفاتح مرتبا سنويا فى مدينة هرات (فى أفغانستان حاليا) توجه هذا الشاعر ـ الذى ألف رسالة فى سيرة الفاتح ومدحه بقصائده ـ الى القسطنطينية ، ولكنه عند وصوله الى مدينة قونية فى الأناضول عرف نبأ وفاة السلطان الفاتح فحزن وعاد الى بلاده • واستمرت علاقته الطيبة مع بايزيد الثانى ابن الفاتح والذى ألف له كتابى « دفتر العدل » و « سلسلة الذهب (٧٥) » •

بل دعا الفاتح الى بلاطه أصحاب الفن من غير المسلمين ، ومن هؤلاء جنتيل بلينى أشهر الرسامين البنادقة فى عهده ، وأقام هذا الرسام لمدة سنة فى استنبول ، ونال جوائز سنية من السلطان بالإضافة الى مرتبه• وهو الذى رسم صورة السلطان محمد الشهيرة التى هى محفوظة فى « المتحف الفنى القومى » « National Art Gallarey » فى لندن وكذلك أرسل اليه رئيس جمهورية البندقيه بعد انعقاد الصلح بين الطرفين مهندسا معماريا ومثالا شهيرا هو بارتولوميو « Bartolomio » •

وكان الفاتح كالمأمون والواثق من خلفاء العباسيين فى إقامة مجالس علمية للمناقشة والمجادلة بين كبار العلماء فى بلاطه وكانت بعض هذه المناقشات تستمر لمدة أسبوع (٧٦) ، كما كان يناظر بنفسه رئيس بطارقة

---

(٧٣) محمد بيك النقشبندى البرهانبورى ، ملحق خلاصة السير ص ١٣٨
(٧٤) نفس المصدر فى الموضع نفسه .
(٧٥) نفس المصدر فى نفس المكان .
(٧٦) انظر تفاصيل بعض هذه المناقشات فى كتاب على همت الاقسكى المذكور ص ٣٣ ـ ٣٤ و ٨٣ ، وفى كتاب محمد الفاتح للدكتور الرشيدى ص ٣٨١ ـ ٣٩٢

المسيحيين الأرثوذكس فى استنبول ، جناديوس • وطلب اليه أن يؤلف له رسالة فى الدين المسيحى حسب مذهبه •

وكذلك عمت حركة الترجمة والنقل من اليونانية واللاتينية والعربية الى اللغة التركية فى عهده • ولقد عثر السلطان على نسخة أصلية من كتاب بطليموس اليونانى فى الجغرافية ، وخريطة له فى قصر الإمبراطور فدرسه مع العالم اليونانى جورج امبروتزوس ثم أمر بترجمة هذا الكتاب القيم الى اللغة العربية من جديد بعد الترجمة التى تمت فى العصر العباسى ، واعادة رسم الخريطة مع التحقيق فى أسماء البلدان وكتابتها بالعربية واليونانية • وبالفعل ترجمه ابن هذا العالم اليونانى الذى كان يجيد اللغة العربية • ونشر هذه الترجمة الأمير المصرى المثقف الباحث يوسف كمال من العائلة الخديوية فى ١٩٢٩ م فى طبعة مصورة • كما ترجم كتاب مشهورى الرجال لبلوتارخ من اللاتينية الى التركية ، وكذلك تم نقل كتاب التصريف فى الطب لأبى القاسم الزهراوى الأندلسى الى هذه اللغة مع زيادات فى صور الآلات الجراحية ، وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية •

وكثيرا ما كان الفاتح يطلب من عدد من العلماء الكتابة فى موضوع واحد ، فى صورة المسابقات العلمية فى العصر الحديث ليدفعهم التنافس الى إبداع وابتكار ، وإنتاج علمى أفضل• ويمنح المؤلفين البارعين مكافآت جزيلة ، فازدهرت الحركة العلمية فى عهده ، وكثرت التآليف العلمية وخاصة فى الموضوعات الدينية والأدبية (٧٧) •

ولقد كون السلطان محمد الفاتح العالم الشاعر مكتبة خاصة فى قصره غنية بنوادر الكتب وروائع الآثار ، فيها ١٢ ألف مجلدا فى مختلف اللغات

---

(٧٧) ومن أراد الاطلاع على حياة هؤلاء العلماء وإنتاجهم العلمى فى العربية والتركية فعليه الرجوع الى كتاب « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » لمؤلفه التركى الجليل طاشكبرى زاده .

العربية والفارسية والتركية واليونانية واللاتينية .. بالإضافة الى المكتبات الأخرى الملحقة بمدارس الصحن ومدرسة أيا صوفيا ومدرسة أبى أيوب الأنصارى وغيرها . وسار على هذا المنهج وزراؤه ، ثم السلاطين الآخرون بعده ، حتى أصبحت استنبول أغنى العواصم الإسلامية بروائع الآثار الإسلامية لحرص السلاطين والوزراء على اقتناء الكتب القيمة من أطراف العالم الإسلامى ، وتكوين مكتباتهم الخاصة بالجوامع الكبرى . ولا تزال هذه المكتبات تحتفظ بأكبر قسط من روائع المخطوطات .

تنظيم الدولة فى عهد الفاتح :

بدأ تنظيم الدولة العثمانية فى عهد أورخان ثانى سلاطين الدولة تنظيما أوليا ، وظل هذا التنظيم متبعا ببعض التعديلات البسيطة فى جهازها المدنى والقضائى والعسكرى الى أن جاء عهد الفاتح ، والذى استقر فيه الحكم العثمانى على مناطق شاسعة فى أوربا الشرقية وآسية الصغرى أو الأناضول بأسرها ، فاضطرت الحاجة الى تطوير نظم هذه الدولة الواسعة ووضع قوانين ولوائح لها . وتم ذلك فى عهد الفاتح على نطاق واسع ، وظلت المؤسسات الحكومية والتشكيلات القضائية والعسكرية التى أنشئت فى عهده قائمة ببعض التعديلات والإصلاحات ، الى عهد السلطان محمود الثانى فى بداية القرن التاسع عشر الى أن أجرى فيها هذا السلطان تغييرا جذريا ، وأنشأها على نظم أوربية .

ومن الجدير بالملاحظة أن كيان الدولة العثمانية كانت قائمة ، كالدول الإسلامية الأخرى فى ذلك العصر ، على الشريعة الإسلامية : يمسك بزمام أمور الدولة أمير أو سلطان مطلق التصرف ، يهيمن عليه الشرع الإسلامى ويحد من صلاحياته . وظل هذا الوضع قائما طوال العهد العثمانى ببعض تعديلات شكليه فى القرون الاخيرة عندما انفصلت الحكومة عن القصر .

وعلى هذا فكان السلطان هو رئيس الحكومة وقائد الجيش ، يساعده

فى تصريف شئون الدولة المدنية والعسكرية وزير وقواد الجيش كما يساعده فى شئون القضاء وفصل الخصومات قاض يسمى قاضى العسكر • وكان أول وزير علاء الدين أخو أورخان ، وأول قاضى عسكر المولى خليل الأسود الجندرى أو الجندرلى فى عهد مراد الأول ، والذى اختير بعد ذلك لمنصب الوزارة ، وظل هذا المنصب فى أعقابه ، وكان آخر من تولاه منهم خليل باشا الجندرى ، الذى قتل لخيانته بعد فتح القسطنطينية كما رأينا فيما سبق •

لم يكن حتى عهد الفاتح نظم ولوائح للتشكيلات العسكرية الجديدة التى أنشئت فى عهد والده مراد الثانى باتخاذ نظام « ديوشيرمه » (جمع الأطفال المسيحيين لقاء ضريبة حكومية) وإدخالهم فى جيش الإنكشارية • ويقال أن مراد الثانى فى أواخر عهده اهتم بوضع نظام ولوائح لجيشه المكون من عناصر مختلفة ، ولكن لم يحفظ لنا التاريخ منها الا الخطوط الأساسية • كما كان ازداد عدد الوزراء من واحد الى اثنين أو أكثر •

وجرى فى عهد الفاتح تنظيم خاص لأركان الدولة ومؤسساتها ، والتشكيلات القضائية والعسكرية ، وإدارة الأقاليم •

فكان مركز الحكومة فى القصر السلطانى ، وخصص لها مكان خاص يسمى « بالديوان الهمايونى » ، وعلى رأس الحكومة الوزير الأعظم (أو رئيس الوزراء) يساعده فى ذلك أربعة وزراء يسمون وزراء القبة (٧٨) ، وكانت تعقد جلسات الحكومة فى الديوان تحت إشراف السلطان نفسه ، وكان من أركان الدولة الذين يحضرون مجلس الحكومة بالإضافة الى هؤلاء المذكورين قاضى العسكر (أو رئيس القضاة) ، والدفتر دار (وهو وزير المالية) ، والنشانجى (وهو رئيس المكتب السلطانى وبمثابة وزير الخارجية أيضا) •

---

(٧٨) سموا بهذا الإسم لأنهم كانوا يجلسون تحت قبة فى الديوان أو القاعة .

وعند افتتاح جلسة الديوان الهمايونى كانت فرقة الموسيقى (٧٩) تعزف السلام السلطانى ويسمعه السلطان وأعضاء الحكومة واقفين .

كان السلطان يحضر جلسات الحكومة يوميا ويشرف عليها شخصيا ، ولكنه امتنع عن ذلك فى أواخر أيامه ، وذلك باقتراح من وزيره أحمد كدك باشا لحادث بسيط (٨٠) وبدأ يراقب أعمال مجلس الحكومة ، ويسمع مناقشات الأعضاء من شباك فى غرفة الطابق العلوى للديوان . وكان للوزير الأعظم سلطة مطلقة فى تصريف شئون الدولة ، ويسلم اليه خاتم الحكومة عند تعيينه ويسترد منه اذا عزل كما كان الأمر فى الخلافة العباسية. ومعظم هؤلاء الوزراء منذ عهد الفاتح كانوا من أولئك الذين تربوا ونشأوا فى مدارس القصر من الأطفال المسيحيين الذين أسلموا . أما فى مجال القضاء فقد أنشأ الفاتح منصب قاضى عسكر ثان، فأصبح هناك قاضيا عسكر: واحد للروملى (أو المنطقة الأوربية) والآخر للأناضول . وكلاهما يحضران جلسات الحكومة .. وبجانبهما مفتى العاصمة الذى كان يعرف بمفتى الأنام (وشيخ الإسلام فيما بعد) .

وكان القضاء مستقلا تمام الاستقلال فى الدولة ، ويشرف على السلطة القضائية قاضيا عسكر ، وهما يعينان قضاة فى أقاليم ومدن مختلفة .

أما التشكيلات العسكرية فقد تم تصنيفها فى هذا العهد فى قسمين رئيسيين « قبوقولى » (عبيد الباب) ، والآخر « ايالات عسكرية » (جند

---

(٧٩) والعثمانيون هم أول من اتخذ موسيقى عسكرية كما يقال .

(٨٠) وهو أن جاء أحد الفلاحين فى جلسة الديوان وسأل الحضور بلهجة خشنة من منكم السلطان فعندى مظلمة . ولاحظ أحمد كدك باشا استياء السلطان من هذه المفاجأة أثناء البحث فى موضوع هام . فاقترح على السلطان مراقبة مناقشات المجلس من بعيد ، ولكن الوزير ، كما يقول على همت الأقسكى ، انتهز هذه الفرصة لإبعاد السلطان من المجلس حتى تدور المناقشات بحرية أكثر ، دون مهابة لوجوده بين الأعضاء .

الولايات) • فالأول هم جنود الخاصة ، وكانوا ينقسمون الى فرعين : مشاة وفرسان • وكان المشاة الخاصة مؤلفة من سبعة أسلحة بأسمائهم التركية ، كسلاح الرماة ، وسلاح المدفعية وسلاح الهندسة ، وسلاح العربات وسلاح الألغام وغير ذلك • وكان هؤلاء يسكنون فى ثكنات حكومية فى استنبول وأدرنة •

أما فرسان الخاصة فكانوا مكونين من ست فصائل بأسمائهم التركية، وهؤلاء لم يكونوا يقيمون فى ثكنات فى استنبول ، بل فى القرى المجاورة لها ولأدرنة وبورصة حيث مراعى خيولهم• ومرتبات هؤلاء المشاة والفرسان كانت تصرف من خزينة الدولة •

أما جند الإيالات فكان ينقسم أيضا الى فرق خاصة من الفرسان والمشاة وأسلحة عديدة ولهم أسماء تركية غريبة (٨١) • وكان على أمراء الولايات « بيلربى » أن يرسلهم الى الدولة عندما يلزم الأمر فى حالة حدوث الحرب وتوجيه الحملات ، ومرتباتهم وأجورهم كانت تصرف من إيراد الولايات ، أو يشترك هؤلاء الجنود وخاصة الفرسان منهم فى المعارك لقاء الإقطاعات التى منحت لهم كبدل للخدمة العسكرية منذ العهود الأولى ، ومن ثم فكان هؤلاء يسمون فرسان الإقطاعية •

وفى عهد الفاتح أصبح للأسطول لأول مرة شأن ملحوظ ، وهو الذى أنشأ منصب أمير البحر (الذى عرف فيما بعد بقبودان باشا) ، وكان سليمان باشا بلطه أوغلو أول من تولى هذا المنصب وبعده حمزة باشا • وكان سلاح البحرية يتألف من ثلاثة آلاف جندى (٨٢) ، من قواد السفن والضباط والبحارة ، ويشترك معهم عند نشوب المعارك جنود الإنكشارية

---

(٨١) انظر هذه الأسماء فى كتاب على همت الأقسكى المذكور ، ص ١٦٤

(٨٢) المصدر المذكور اعلاه ، ص ١٦٥

وجنود الولايات بأعداد وافرة ، كما ازدادت السفن فى دور الصناعة (الترسانات) الحكومية فى هذا العهد .

وأما قانون نامه (لائحة القانون) الذى ينسب الى عهد الفاتح والذى يشتمل على مناصب ووظائف أعضاء الحكومة وموظفى القصر وأوضاعهم وصلاحياتهم ومرتباتهم ، ومراسيم البلاط ، والعقوبات المالية على الجنايات، فلقد قلنا فيما سبق أنه مزور مدسوس . واهتم الغربيون وعلى رأسهم المستشرق الألمانى هامر مؤلف كتاب الدولة العثمانية بهذا القانون لما ورد فيه من تشريع قتل السلطان اخوته عند توليه الحكم . ووقف هامر عند هذه النقطة وقفة طويلة لينال من السلطان، لتعصبه الممقوت، على أساس واه باطل . إذ يتبين من النظر الى هذا القانون أنه وضع بعد عصر السلطان الفاتح بزمن طويل (٨٣) وقد انتقده المؤلف التركى الجليل على همت ألاقسكى انتقاداً منطقيا تاريخيا ، وأثبت بطلانه .. ومما نم ينتبه اليه المؤلف الجليل أنه ورد فى خطبة هذا القانون لقب « خليفة المسلمين » بالنسبة للسلطان محمد الفاتح ، ومن المعلوم أنه لم يدع هذا اللقب العظيم، ولم يرد ذلك فى أية وثيقة من الوثائق الرسمية لعهده ، وبعضها موجودة منشورة . كما أنه ورد فى آخره اسم نجل السلطان باسم السلطان محمود، وعائشة بنت محمود هذا ، ومن المعروف أن الفاتح لم يكن له ابن بهذا الإسم بل أبناؤه المذكورون فى التاريخ هم مصطفى (ومات فى حياة والده) وبايزيد الثانى وجم .

أما موضوع تشريع قتل السلطان إخوته عند اعتلائه العرش اتقاء للفتن والتنافس فيختلف فيه المؤرخون اختلافا كبيرا ، فيقول مثلا العلامة

---

(٨٣) انظر نصه فى كتاب على همت المذكور ص ١٧٦ – ١٦٨

المصرى المرحوم أحمد تيمور باشا أن واضع هذا القانون بايزيد الأول أو بايزيد يلدرم (٨٤) ، والمعروف أنه قتل أخاه يعقوب الشاب بمجرد توليه الحكم أثناء معركة قوصوه الاولى .

بينما يقول مؤرخ آخر وهو محمد بيك النقشبندى أن الذى سن هذا التشريع هو بايزيد الثانى بعد الصراع الذى حدث بينه وبين أخيه جم ، والذى دخلت فيه الدول الأجنبية كمصر ، ورودس وألبانيا .

وهكذا فلا يمكن البت فى هذا الموضوع ، وأغلب الظن أنه عمل به فى عهد بايزيد بسبب فتنة جم ، أو فيما بعد عندما بدأ الإنكشارية يتدخلون فى الشئون الحكومية ويقتلون السلاطين ويعزلونهم ويجلسون الآخرين من اخوة السلطان المقتول أو المعزول على العرش فى القرن السابع عشر الميلادى .

---

(٨٤) انظر التذكرة التيمورية ص ٢٤٥

(٨٥) انظر كتابه ملحق خلاصة السير ص ١٣٨

المراجـع العربيـــة

١ ـ **احمـد تيمور باشـــا :** التذكرة التيمورية .. القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ **ابـن ايـــــاس :** بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٣ أجزاء ، بولاق ١٣١١ هـ .

٣ ـ **برنـارد ، لـــويس :** استنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانيـة تعريب د. سـيد رضوان على . منشـورات كليـة الآداب جامعـة بنغـازى ١٩٧٤ .

٤ ـ **بينـز ، نـورمن :** الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب د. حسـين مـؤنس ومحمود يوسف زايد . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٧ م .

٥ ـ **ابن تغرى بردى ابو المحاسن جمال الدين :** النجوم الزاهرة فى اخبـار ملوك مصر والقاهرة ١٤ جزءا القاهرة ١٩٣٠ .

٦ ـ **جميلـة قيراطى :** مقال « المتصوف الشعبى يونس امره » مجلة فكر وفن عدد ١٨ سنة ١٩٧٠ . هامبورج . المانيا .

٧ ـ **د. الرشـيدى ، سـالم :** محمد الفاتح . الطبعة الثانيـة . بيروت ١٩٦٩ .

٨ ـ **السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن :** الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدس ١٣٥٤ هـ .

٩ ـ **سرهنك ، امير آلاى اسماعيل :** حقائق الأخبار عـن دول البحـار ٣ أجزاء القـاهرة ١٩١٧ .

١٠ـ **شـارل ديـل :** البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب أحمد عزت عبد الـكريم وتوفيق اسكندر . القاهرة ١٩٤٨ .

١١ـ **الأمير شـكيب ارسـلان :** مقال « فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها » فى حاضر العالم الإسلامى (الجزء ١) تأليف ستودارد لوثروب تسرجمة عجاج نويهض ، ٤ أجزاء فى مجلدين (طبعة مصـورة) بيروت ١٩٧١ م .

١٢ـ **طاشكبرى زاده :** الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية على هامش وفيات الأعيان . الطبعة الميمنية ـ القاهرة ١٣١٠ هـ .

١٣ـ **على همت الاقسكى :** أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية . ترجمه من التركية محمد إحسان بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٥٣ م .

١٤ـ **عنان : محمد عبد الله :** مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام . القاهرة ١٩٥٢ م .

١٥ـ **ابن العماد الحنبلى ، عبد الحى :** شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ١٠ أجزاء . القاهرة ١٣٥١ هـ .

١٦ـ **أبو الفدا :** تقويم البلدان .

١٧ـ **فريد ، محمد :** تاريخ الدولة العلية العثمانية ، الطبعة الثانية القاهرة ١٨٩٦ م .

١٨ـ **مينوروسكى :** مقال « أوزون حسن » فى دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية بقلم نخبة من الأساتذة ج ٥ إ القاهرة .

١٩ـ **النقشبندى ، محمد بيك البرهانبورى :** ملحق خلاصة السير تحقيق ظهور أحمد أظهر ، لاهور ، باكستان ١٩٧٠ م .

المراجـع الأجنبيـة

1. ACTON, LORD : Lectures on Modern History, Collins. London. (7th impression) 1969.

2. ARNOLD, SIR THOMAS : The Caliphate. (Reprint) Karachi, 1966.

3. CIPOLLA, C. H. : European Culture and Overseas Expansion. (Pelican Books), England. 1970.

4. COLES, PAUL : The Ottoman Impact on Europe. London 1968.

5. CREASY, SIR EDWARD : History of the Ottoman Empire. (Reprint) Beirut 1961.

6. DANIEL, NORMAN : Islam, Europe and Empire. Edinburgh 1968.

7. GIBBON, EDWARD : The Decline and Fall of the Roman Empire. edited. Oliphant Smeaton. Macmilan, London. 1962.

8. LANE-POOLE, STANLAY : Turkey, (Reprint) Beirut, 1966.

9. LEWIS, BERNARD : Istambul and the Civilization of the Ottoman Empire. Oklahama. U.S.A. 1963.

10. MENAGE, V. L. : «Six Ottoman Documents» in Documents from Islamic Chanceries, edited., S.M. Stern, London.

11. OSTROGORSKY : «Paliologi» in the Medival Cambridge History, Vol. IV.

12. PIRENNE, JACQUES : The Tides of History, London 1963.

13. RUNCIMAN, Sir S. : The Fall of Constantinople, Cambridge, 1965.